

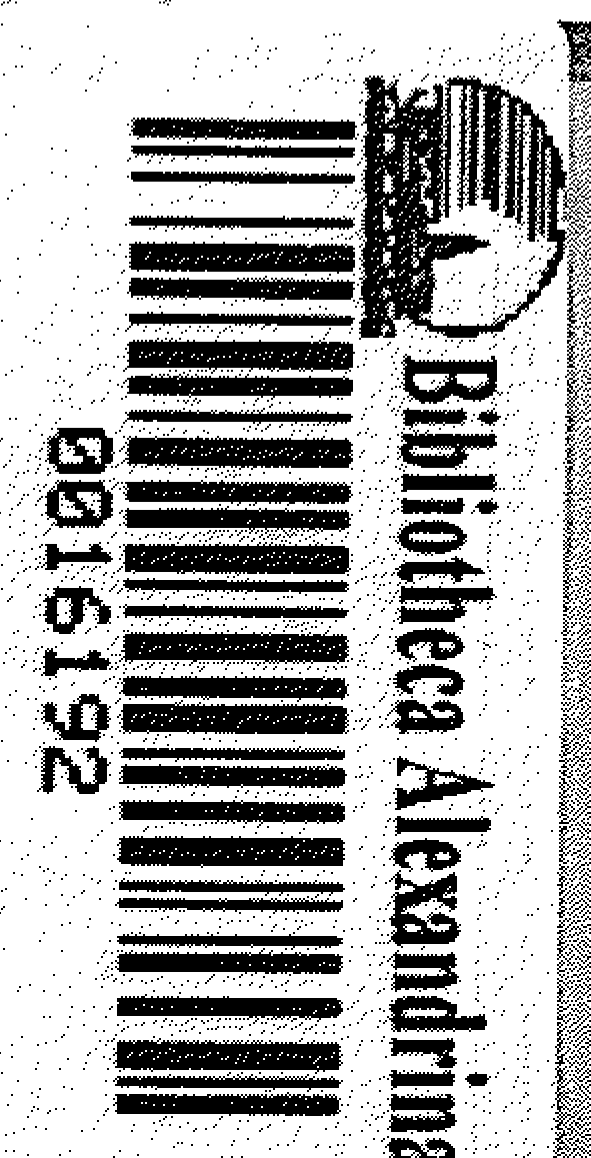
مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

الاعمال القومية لساطع الحصري: (١٠)

دفاع عن العروبة

ابو خلدون ساطع الحصري





مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

الاعمال القومية لساطع الحصري: (١٠)

دفاع عن العروبة

ابو خلدون ساطع الحصري

- مثال امريكا اللاتينية ١٠٨
- مثال بلجيكا ١١٤
- مثال سويسرا ١١٩

خاتمة ١٢٣

مقدمة

ما أسعد الأمم التي حققت وحدتها القومية ، واستكملت شخصيتها السياسية فاستطاعت أن تجعل حدودها الدولية منطبقة على حدودها القومية !

ذلك لأن مفهوم الوطن عند أمثال هذه الأمم يكون واضح المعالم ومستقر الشكل ، الأمة تكوّن دولة مستقلة موحّدة ، فتتعين حدود الوطن عندها بحدود الدولة القائمة التي تجمع شمل الأمة بأجمعها تحت راية واحدة .

ولذلك لا تكون الوطنية عند هذه الأمم موضع خلاف ومثار جدل . وجميع أفراد الأمة يفهمون الوطن على طراز واحد ، ولا يختلفون في تقدير واجباتهم الأساسية نحو هذا الوطن المشترك العام .

ولكن ، ما أتعس الأمم التي ظلت بعيدة عن تحقيق وحدتها القومية واستكمال شخصيتها السياسية ، فلم تستطع أن تجعل حدودها الدولية منطبقة على حدودها القومية !

إن مفهوم الوطن عند هذه الأمم لا يكون واضح المعالم ومستقر الشكل . لأن تعدد الدول المسيطرة على شؤون الأمة يجعل مفهوم الوطن معقداً ومشوشاً في الأذهان .

ذلك لأن الوطنية عند تلك الأمم تتصل بمفاهيم عديدة ، فيكون هناك « الوطن الخاص » الذي يتحدد بحدود كل دولة من الدول القائمة ، و « الوطن العام » الذي



في الواقع أن « العروبة » أحرزت - خلال هذه المدة - عدة إنتصارات هامة في بعض الميادين ، ولكنها تعرضت إلى بعض الخسائر أيضاً ، في ميادين أخرى :

إن الثورة المصرية قضت على الحكم الملكي ، وأزالت بذلك أحد عوائق الإتحاد . فإن العرش المصري كان أقدم العروش القائمة في الشرق العربي ، ونستطيع أن نقول : أنه كان العرش الوحيد الذي يستحق النعت بالقديم . وكان له جذور عميقة وأسس متينة ، تقوّت وتأصّلت بعمل عدة أجيال من أرباب السياسة والصحافة ورجال الدين والتعليم - فالقضاء على هذا العرش ، لا شك في أنه كان خدمة ثمينة لفكرة القومية العربية ، ولمستقبل هذه الفكرة .

ثم ، إن رجال الثورة ، بحكم إتصالهم القديم والعميق بطبقات الشعب ، وبسبب إشتراكهم الفعلي بمعارك فلسطين . . قدّروا الروابط المعنوية التي تربط مقدرات مصر بمقدرات البلاد العربية الأخرى ، وأدركوا القدرة الكامنة في فكرة الوحدة العربية ، لمستقبل مصر بوجه خاص ، ولمستقبل سائر البلاد العربية بوجه عام ، وأعلنوا - لذلك كله - إيمانهم بالعروبة ، منذ بداية الأمر .

وأخذت فكرة القومية العربية تنتشر في مصر - بعد قيام الثورة - بسرعة كبيرة ، وتحقق بذلك ما كنت أتوقعه وأتمناه بكل جوانحي منذ عدة عقود من السنين : تبنت مصر فكرة القومية العربية ، وصارت تعمل من أجلها بكل قوة ونشاط .

هذا ، من جهة . ومن جهة أخرى ، فإن الوعي القومي اشتد في جميع أنحاء المغرب العربي ، وصار يدفع الجماهير إلى العمل للتحرر من ربقة الاستعمار ، عملاً مقروناً بروح التضامن والتضحية والإيثار . ووصلت الحركات القومية الاستقلالية في ذلك القسم من العالم العربي إلى حد ، يثلج الصدور ، ويبشر بمستقبل أفضل ونصر قريب . ولكن - مقابل ذلك - تعرضت فكرة القومية العربية - في بعض الميادين - إلى شيء من الفتور والإسترخاء ، وصل إلى حد التراجع والارتداد في بعض الأحوال .

فإن السياسة الدولية ، وجدت في الأحوال الحاضرة فرصة مواتية للتأثير على بعض الدول العربية ، وقامت بمناورات عديدة ، انتهت إلى ارتباط إحدى الدول العربية إلى عجلة من العجلات العالمية ، وأخذت تسعى إلى جر ما جاورها أيضاً إلى نفس الاتجاه . ونتج عن ذلك بلبلة خطيرة في السياسة العربية ، كادت تؤدي إلى حدوث إنشطار في قلب العالم العربي وسرة حياته . ومما يؤسف له كل الأسف ، أن بعض الكتّاب والساسة - في مختلف البلاد العربية - لم يقدروا أخطار هذا الاتجاه ، حتى أنهم صاروا يحبذونه ويدافعون عنه .

وقد فات هؤلاء ، أن المكانة التي يتمتع بها العالم العربي في السياسة الدولية ، تستند - في الدرجة الأولى - إلى وقوعه في ملتقى القارتين ، وإلى سيطرته على هذا الملتقى بمخالب قوية وأجنحة واسعة ، تمتد إلى طرفيه ، إلى مسافات شاسعة . إن إنشطار العالم العربي على النمط الذي أشرت إليه آنفاً ، يفقده هذه المكانة الخطيرة ، ويذهب بكل ما له من أهمية سياسية واستراتيجية .

ومن المعلوم أن السياسة الدولية - ولا سيما السياسة البريطانية - بذلت جهوداً متواصلة لإحداث هذا الانشطار ، منذ صدور « وعد بلفور » ، وذلك بدقّ « الإسفين » الذي أسموه في بادىء الأمر باسم « الوطن القومي لليهود » ، والذي إنتهوا إلى تسميته باسم « دولة اسرائيل » .

وأنا أعتقد بأن الاتجاه الذي حبذه بعض الكتاب والساسة - بدون تفكير وروية - يكون بمثابة إضافة إسفين معنوي جديد ، إلى ذلك الاسفين المادي البغيض .

- ٣ -

يتبين من كل ما سبق : ان فكرة العروبة لا تزال تجابه مقاومة شديدة من بعض البيئات ، كما أنها تتعرض إلى هجمات عنيفة من بعض البيئات .

هناك طائفة من الكتّاب والساسة لا تؤمن بوحدة الأمة العربية ، ولذلك لا تبذل أي جهد في هذا السبيل .

وبينهم من لا يكتفي باتخاذ مثل هذا الموقف السلبي في هذا المضمار ، بل يزدري بكل من يؤمن بوحدة الأمة العربية ، ويتهمهم بالخيالية .

والبعض منهم يمضي في هذا المضمار إلى أبعد من ذلك ، يتهم دعاة العروبة بضعف التفكير ، وينتقدهم أشد الانتقاد .

ولكن هناك طائفة أخرى ، لا تكتفي بنقد وتسخيف فكرة الوحدة العربية ، بل تعتبر هذه الفكرة من الأمور الضارة التي يجب محاربتها ، وتتهجم على العروبة وعلى دعاتها ، هجوماً عنيفاً .

إني كتبت الفصول التالية ، لاستعراض ونقض هذه الآراء والأعمال ، وللدفاع عن العروبة ، تجاه الهجمات الضالّة المضلّلة التي يشنها عليها هؤلاء بصور ووسائل شتى .

مونترو ٢٠/٧/١٩٥٥

ساطع الحصري

في حفلة مدرسية

- ١ -

عندما كنت أقلب صفحات جريدة يومية في بيروت ، في بداية هذا الصيف ، وقع نظري على عنوان ضخم ، يتوج ثلاثة أعمدة ، بحروف كبيرة :

« حصاد الموسم في المدارس »

فأخذت أقرأ ما تحت العنوان ، مدفوعاً بميلي القديم نحو تتبع شؤون المدارس والتربية والتعليم .

وقد فهمت من قراءة السطور الأولى ، ان الجريدة تصف حفلة مدرسية ، أقيمت في الجبل ، بمناسبة توزيع الشهادات على المتخرجين ، ومنح الجوائز للمتفوقين ، بحضور جمع غفير من الأهلين بينهم بعض الوزراء في حكومة لبنان .

وقد جاء في الجريدة ما نصه :

« كان خطيب الحفلة الاستاذ . . خاطب الخريجين قائلاً : « نحن نهاية جيل ، وأنتم نقطة الابتداء في جيل جديد » ثم ناشدهم أن يستوحوا الايجابية في كل شيء . وإن الأمور السياسية ليس فيها أحقاد دائمة ولا صداقات دائمة . بل هي المصالح القومية العليا التي تفرض ، في الأخير ، القصد والاتجاه .

« ثم تلاه الطالب . . . عن الدائرة العربية الانكليزية ، فألقى كلمة نثرية أنهاها بقصيدة من نظمه في وداع المعهد ، مشيراً إلى وحدة الشعب التي تعلو على خلافاته الطائفية .

« ثم جاء دور الطالب . . . فألقى خطاباً عن الدائرة العربية الفرنسية ، قال فيه :

إنا أقف بينكم في هذه الساعة ، وفي نفسي عزم وقوة ، وفي عيني بريق أمل لا يموت ، أنظر إلى الحياة نظر المطمئن الواثق ، بعد أن عرفت حقيقتي ، وآمنت أنني جزء من مجتمعي ، وجندي في معسكر ، يستعد لمعركة فصل الخطاب .

« إن مدرسة الحياة الكبرى تعلمنا أن الطالب هو نقطة الانطلاق والارتكاز في بناء مجتمع أفضل . وإن الأمة تنتظرنا وقد وضعت ثقتها ، كل ثقتها ، بنا ، كأني أن نكون بديلين عن حركة تحريرها . فالطلبة ، وهم من هذا المجتمع وله ، سلاحهم في معركة التحرير هو الإيمان والمعرفة ، مع الاستعداد الدائم لدفع ضريبة الدم ، حين يدعو الواجب .

« إن خير بلادنا لنا نحن ، لنتمتع به ونستغله فيما يعود على أمتنا بالتقدم والارتقاء ، وما وصولنا إلى ما وصلنا إليه إلا نتيجة إنصرافنا عن قضية بلادنا الكبرى إلى النعرات الطائفية البغيضة والتحزبات الاقطاعية النيورجعية ، المتلبسة برداء أحمر ، مستوردة من خارج بلادنا .

« أيها الأخوان ! إن في شعبنا كل علم ، وكل فن ، وكل فلسفة ، ولكن منابع العبقرية الكامنة فينا قد علاها الصدأ ، وهي تنتظر من يفجرها نوراً وفكراً وإشعاعاً . ولتحقيق هذا الانقلاب الشامل ، نحن بحاجة للسير بالحركة الفكرية الاجتماعية ذات النظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن ، المستمدة من روح تاريخنا وواقع حياتنا .

« ... الطالب ، يا سادة ، هو مواطن في حقل اختصاصه ، وعليه أن يكون منتجاً بطريقة ما ، وعلى قدر وعيه لقضيته وإيمانه بنفسه يكون بذله وعطاؤه .

« فيا زملاء الدراسة ، ويا رفقاء السلاح : ان الأمة قد وضعت على أكتافكم عبئاً ثقيلاً ، هو عبء تحرير أجزاء الوطن الضائعة . . . » .

قرأت الخطاب إلى هنا ، باهتمام متزايد ، لأني لاحظت بين أسطره بعض كلمات وعبارات ذكرتني بخطب انطون سعادة ومريديه . ولكني دهشت دهشة عظيمة ، عندما قرأت الأسطر التي تلي ذلك ، وعلمت ما يقصده من تعبير « أجزاء الوطن الضائعة » .

إذ يقول الطالب بعد العبارات التي نقلتها انفاً :

« عبء إنقاذ فلسطين ، وقبرص وسيناء وكيليكية والاسكندرون » .

« ... إن الأمة وضعت على أكتافكم هذا العبء الثقيل ، لأنها تعلم أن أكتافكم أكتاف جبابرة ، وسواعدكم سواعد أبطال ... » .

إذن ، فإن أجزاء الوطن الضائعة ـ في نظر صاحب الخطاب ـ هي : فلسطين ، وقبرص ، وسيناء ، وكيليكية والإسكندرون !!

نشرها انطون سعادة ومريدوه ، دخلت حرم المدارس ، وصارت تضلل الشبان في معنى الأمة والوطن ، وفي معنى المواطنين والأجانب .

إنها توصلت إلى تضليل هذا الشاب ، حتى جعلته يعتبر قبرص جزءاً من الوطن الذي يجب أن يعمل لانقاذه ، كما يعتبر مصر أجنبية عنه ، مثل الأتراك والانكليز والصهيونيين .

وهذا هو سبب الدهشة التي اعترتني عندما اطلعت على هذا الخطاب في جريدة صدى لبنان .

- ٣ -

إني كنت درست آراء انطون سعادة وتعاليمه ، درساً تفصيلياً ، ونقدتها نقداً علمياً في كتابي « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » . الذي نشر قبل مدة تقرب من خمس سنوات ولم أعد إلى كتابة شيء عنها بعد ذلك التاريخ ، لاعتقادي بأن تلك الانتقادات لم تكن في حاجة إلى المزيد .

ولكني علمت - مما حدث بعد ذلك - إن الحزب واصلَ أعماله التضليلية ، واستطاع أن يتغلغل في بعض الأوساط ، لأسباب عديدة ، ووسائل شتى .

أولاً ، استفاد رجال الحزب من الاختلافات التي قامت بين حكومتي سوريا ولبنان . فإن الحكومتين المذكورتين تناوبتا العطف على الحزب والتنكر له ، عدة مرات : عندما غضبت عليه حكومة لبنان عطفت عليه وساعدته حكومة سوريا ، وعندما غضبت عليه سوريا عطف عليه لبنان ، وهيأ له وسائل العمل والنشاط في أراضيه .

فضلاً عن ذلك ، وجد رجال الحزب ، في السنوات الأخيرة حماية وتشجيعاً من جماعات وهيئات أخرى ، رسمية وغير رسمية عربية وغربية . صارت هذه تحمي وتساعد الحزب ، لأنها تعتبره آلة ناشطة لمحاربة الشيوعية ، كأن الشيوعية لا يمكن أن تحارب إلا بالتنكر للعروبة !

وأخذت جماعة تصفق له ، لأنه صار يدعو إلى إتحاد سوريا مع العراق ، كأن الاتحاد بين البلدين يمكن أن يتم من غير الاستناد إلى فكرة العروبة ، وكأن إنكار القومية العربية يعود بفائدة ما على أي واحد منهما !

وصارت جماعة تحبذه لأنه يدعو إلى إلغاء الطائفية ، كأن الدعوة إلى ذلك تنحصر في هذا الحزب ، وكأن زوال الطائفية يتوقف على تبعيد فكرة العروبة من الأذهان والقلوب .

هـذا ، ويجب أن لا يغرب عن البـال ، بأن تغيـير اسم الحزب أيضـاً عاد عليـه بفوائد عديدة : إذ من المعلوم أنه كان يسمى - في بادىء الأمر - باسم « الحزب القومي السوري ». وبما أن حكومة لبنان رأت في هذا العنوان خروجاً على أحكـام الدستـور ، وأمراً يقع تحت طائلة القانون ، غيّر أنطون سعادة اسم حزبه وسمـاه « الحزب القـومي الاجتماعي ».

ولا يخفى أن كلمة « القومي » من الكلمات المحببة إلى النفوس كما أن الاصلاح الاجتماعي من الأمور التي يتوق إليها المواطنون المخلصون .

وصار الكثيرون من الشبان ينخدعون بهذا الاسم ، وينجذبون إلى الحزب ، من غير أن يتأملوا فيما وراءه من مقاصد هدامة .

إن مريدي أنطون سعادة يسمون أنفسهم « قوميين »، في الوقت الذي يحاربـون «القومية العربية »، ويدعون المؤمنين بالعروبة - « مرضى العقل والنفس ».

أمام هذه الأحوال والوقـائع ، رأيت أن أعـود إلى مناقشـة تعاليم هـذا الحزب ، وأن ألفت الأنظار - مرة أخرى - إلى ما تنطوي عليه من ضلال وتضليل .

نظرات إلى دستور الحزب وأساليبه

- ١ -

لقد جاء في مقدمة « دستور الحزب السوري القومي الاجتماعي » ما يلي :

« تأسس الحزب السوري القومي الاجتماعي بموجب تعاقد بين الشارع صاحب الدعوة إلى القومية السورية وبين المقبلين على الدعوة ، على أن يكون واضع أسس النهضة السورية القومية الاجتماعية زعيم الحزب مدى حياته ، وعلى أن يكون معتنقو دعوته ومبادئه أعضاء في الحزب يدافعون عن قضيته ، ويؤيدون الزعيم تأييداً مطلقاً في كلّ تشريعاته وإدارته الدستورية » .

يلاحظ أن كل من ينتمي إلى الحزب ـ نظراً إلى هذه المقدمة ـ يكون قد تعهد بتأييد الزعيم تأييداً مطلقاً في كل تشريعاته واداراته الدستورية .

في الواقع أن هذه التشريعات والادارات مقيدة هنا بالدستورية ، ولكن الدستور لا يتضمن أي نص على وجود هيئة تمثيلية ، ولذلك يصبح هذا القيد عارياً عن المعنى ـ ويكون العضو متعهداً بتأييد الزعيم تأييداً مطلقاً في كل تشريعاته وإداراته .

إنه الشارع ، وصاحب الدعوة ، وله وحده الحق في وضع تشريعات جديدة ، وليس لمريديه الا الطاعة والتأييد ، وذلك مدى حياته .

- ٢ -

واما شروط الدخول في الحزب ، فتبينها المادة التاسعة من الدستور المذكور ـ الدستور الذي وضعه الشارع انطون سعادة بنفسه ـ بالنص :

« كل سوري ذكراً كان أم أنثى يحق له دخول الحزب السوري القومي الاجتماعي ، على أن تتوفر فيه الشروط الآتية :

أ ـ أن يكون قد بلغ الثامنة عشرة من عمره .
ب ـ أن لا يكون قد تجاوز الاربعين من عمره .
ج ـ أن لا يكون مجرماً ضد المجتمع أو ضد الأمة .
د ـ أن يدين بالقومية السورية . وأن يعتنق مبادىء الحزب السوري القومي الاجتماعي ونظامه .
هـ ـ أن يكون مستعداً لاداء القسم الآتي :

« أنا . . . اقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي على أن انتمي إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي بكل اخلاص وكل عزيمة صادقة ، وأن اتخذ مبادئه القومية الاجتماعية ايماناً لي ولعائلتي وشعاراً لبيتي ، وأن احتفظ بأسراره . وأن لا ابوح بها لا بالقول ولا بالكتابة ولا بالرسم ولا بالحفر ولا بأية طريقة أو وسيلة أخرى ، لا تطوعاً ولا تحت أي نوع من أنواع الضغط . وأن أحفظ قوانينه ونظاماته وأخضع لها ، وأن أحترم قراراته وأطيعها ، وأن انفذ جميع ما يعهد به إليّ بكلّ أمانة ودقة . وأن اسهر على مصلحته وأؤيد زعيمه وسلطته . وأن لا أخون الحزب ولا أي فرع من فروعه ولا أفراده ولا واحداً منهم . وأن اقدم كل مساعدة أتمكن منها إلى أي عضو عامل من أعضاء الحزب متى كان محتاجاً اليها . وأن افعل واجباتي نحو الحزب بالضبط . على كل هذا أقسم أنا . . . » .

في هذه المادة ، عدة نقاط تستوقف النظر وتستوجب التأمل ملياً :

أولاً : يشترط الدستور في العضو أن لا يكون قد تجاوز الاربعين من عمره . لماذا ؟ ان سن الاربعين في معظم دساتير العالم هو الحد الادنى للتعيين في مجالس الاعيان والشيوخ . وهو بموجب هذا الدستور الحد الاقصى للدخول في الحزب . ما حكمة ذلك ؟ ألأن الذين تجاوزوا هذا الحد من العمر لا يفهمون ، أو لا يعلمون ، أم لأنهم لا ينخدعون ، ولا يطيعون ؟ .

مهما كان السبب فإن هذه نقطة جديرة بالملاحظة ، يجب أن لا تغرب عن البال .

ثانياً : يلاحظ أن من ينتمي إلى الحزب لا يقيد نفسه فقط بل يقيد عائلته ايضاً بقيود الحزب . لأنه يقسم على أن « يتخذ مبادئه ايماناً له ولعائلته وشعاراً لبيته » . تماماً كما يفعل المسلم والمسيحي ، في فرض دينه على أولاده ، يجب على كل منتمٍ إلى الحزب القومي السوري أن يفرض مبادىء الحزب على أولاده . . بل اكثر من ذلك : على جميع أفراد عائلته . (ولا ادري اذا كان ذلك يشمل الام والاب والاخوة والاعمام والاخوال ايضاً) .

ثالثا : يلاحظ أن القَسَم يتضمن حفظ أسرار الحزب .

اذن ، فإن للحزب اسراراً وأسراراً هـامة جـداً ، يجب أن لا يبوح بهـا أحد من الاعضـاء لا بالقـول ولا بالكتـابة ولا بـالرسم أو الحفـر ، ولا بـأيـة طـريقـة أو وسيلة اخـرى . ثم أن هذه الاسـرار هي من النوع الـذي قد تعـرض صـاحبهـا إلى الضغط والاكراه . فيطلب منه أن يقسم على أنه لا يبوح بها ، حتى ولو تعرض إلى أي نوع من أنواع الضغط ، ويدخـل فيها بـطبيعة الحـال ، النوع الـذي يصدر من سلطات الامن ورجال التحقيق في بعض الاحوال .

لماذا ؟

إن ما هو معلوم عن حوادث اغتيال رياض الصلح في عمان ، وعـدنان المـالكي في دمشق ، يعطي الجواب الفعلي لهذا السؤال .

ولتكـوين فكرة اوضـح عن نظرة القـوم إلى « الشارع » و « صـاحب الـدعـوة » انطون سعادة ، يجدر بنا أن نلتفت إلى « حفلات الميلاد » التي يقيمـونها له كـل عام ، ليلة أول آذار .

إن غاية هذه الحفلات وروحهـا تظهـر بكل وضـوح من « التعميم » الصادر عن « عمدة التدريب » ـ والمنشور في جريدة الحزب ـ ، بهذه المناسبة سنة ١٩٥١ .

هذا التعميم موجه إلى « جميع المنفذيات العامة والمديريـات المستقلة ، في الوطن وعبر الحدود » .

حضرة المسؤول المحترم

تحية سورية قومية اجتماعية ،

لئن مجدت أمة ذكرى حادثة من حوادث تاريخها ، فانما هي في تمجيـدها لهـذه الحادثـة لا تتعدى الحدود الزمنية المحيطة بتلك الحادثة ، أو المغلفة لها في اطار زمني محدود . أمـا نحن فاذا مجـدنا ذكـرى أول آذار ، فانما نمجد فيها الحياة كلها ، بعزها وانطلاقها وشمولها ، وبما أودعته وتودعه في أجيـالنا من عبقرية وقيم وارتقاء ونهوض . فأول آذار لنا ليس له مـا قبله وما بعـده ، إنه شمـول الحياة في امتنـا ، منذ كانت امتنا ابنة الحياة البكر ، ومنذ تفجرت ينابيع الحياة فيها ، لتنهـل منها أمم العـالم خيراً وحقـاً وجمالاً .

ولئن احتفلت أمة بذكرى ميلاد عظيم من عظمائها فإنها لا تخرج باحتفالها بذكرى هذا العـظيم عن تمجيد صفة من صفاته ، ترى فيها فخراً لها يجعلها في مصاف الأمم الراقية . أما نحن فاذا احتفلنا بذكرى ميلاد الزعيم فإننا نحتفل بعطاء الحياة الخيرة في هذه الذكرى ، إننا نحتفل بعطاء الحيـاة الذي لا يحد . فسعادة عندنا ليس بطلاً ربح معركة ، أو شاعراً نظم ملحمة ، أو مكتشفـاً اكتشف مجهولاً ،

أو كاتباً ألّف سِفراً فحسب ، إنه صوت الحياة فينا ، ومجسّد قيمها لنا ، والناطق بلسانها ، والمعبر عن ارادتها .

فليكن اذن احتفالنا بأول آذار ، وبذكرى ميلاد فتى أول آذار ، عظيماً في نفوسنا عظمة الحياة ، وعظمة ابنها البكر ، وقائد ابنائها إلى العز والمجد والنور .

وتعبيراً عما في نفوسنا لهذه الذكرى وتجسيداً مادياً لها ، فلتتجاوب في الساعة السابعة من مساء التاسع والعشرين من شهر شباط ، هتافات السوريين القوميين الاجتماعيين في اجواء الوطن السوري الحبيب بحياة سورية وحياة وليدها العظيم .

وفي السابعة تماماً من مساء النهار نفسه ليجتمع القوميون الاجتماعيون في كل مديرية تابعة أو مستقلة ، وفي مركز كل منفذية عامة احتفالاً بأول آذار ، وتمجيداً لمولد فتاه . وليعلن بدء الاجتماع بالايعاز التالي :

الزعيم   سلام خذ   يحيا سعادة

ثم تتلى كلمات الرفقاء المعدة حسب البرنامج المحلي . وبالنهاية تتلى كلمة عمدة الاذاعة ، ليعلن بنهايتها اختتام الاجتماع باسم سورية وسعادة ، يتلوه سلام الزعيم ، ثم الهتاف الحزبي الرسمي :

يا أبناء الحياة	لمن الحياة	ـ لنا
	لمن نحيا	ـ لسوريا
	من هو قائدنا	ـ سعادة
	يحيى سعادة	ـ يحيى
	يحيى سعادة	ـ يحيى
	يحيى سعادة	ـ يحيى يحيى يحيى
	تحيى سورية	ـ تحيى
	تحيى سورية	ـ تحيى
	تحيى سورية	ـ تحيى تحيى تحيى

وليكن ليل أول آذار عيداً للقوميين الاجتماعيين ، يقيمون فيه السهرات القومية الاجتماعية ، ويتناولون فيه سيرة الزعيم القائد .

وليكن نهار اول آذار عيداً يمتنع فيه القوميون الاجتماعيون عن مزاولة أعمالهم الخاصة ، ويقدمون في الساعة العاشرة من صباحه تهانيهم لهيئة المديرية أو المنفذية العامة بولادة منقذ الامة وهاديها .

ولتحيى سورية   وليحيى سعادة

حول النقاش السابق

- ١ -

إني كتبت ما كتبته في « نقد آراء انطون سعادة » في كتابي « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » (ص ٧٢ ـ ١٥٠) بعد أن درست كتاباته دراسة تفصيلية ، وبعد أن اتصلت به شخصياً وناقشته في مسائل عديدة .

وقد التزمت في نقدي جانب « الحياد العلمي » كل الالتزام ولم اشترك مع الذين كانوا يهاجمونه على طول الخط ، ولا مع الذين كانوا يصفقون له تصفيقاً أعمى . بل حاولت أن أبين ما في آرائه وأعماله من وجوه الخطأ والصواب . حتى أني أظهرت « الخميرة الفاسدة » التي أضلته سواء السبيل ، ودفعته إلى معاداة « القومية العربية » ، ومهاجمتها بعنف وشدة .

وقد قلت :

« أسس سعادة الحزب القومي السوري ، لمحاربة روح الطائفية والنزعة الانعزالية اللتين لاحظهما في لبنان ، في الوقت الذي ما كان يعرف بعد شيئاً يذكر عن احوال سائر البلاد العربية . ولذلك أخذ يدعو إلى فكرة « القومية السورية » ، منددا بالانعزالية اللبنانية الضيقة من ناحية ، وبالقومية العربية الشاملة من ناحية اخرى .

« ولكنه عندما أخذ يطلع شيئاً فشيئاً على أحوال البلاد العربية عن قرب ، لاحظ على الفور الروابط الوثيقة التي تربط سوريا والعراق ، من وجوه عديدة ، وأدرك بذلك ضرورة توسيع مفهوم القومية التي يدعو اليها .

« غير أنه ـ لغوصه في معامع النضال الحزبي السياسي ـ لم يشأ أن يعترف بخطئه

الاول ، فلجأ إلى ادخال العراق في مفهوم « سورية الطبيعية » ، واخذ يسميه باسم « سورية الشرقية » ، ووسع بذلك نطاق أهداف الحزب ، دون أن يغير اسمه .

« إنه ظل معارضاً لفكرة القومية العربية ، ومع هذا ادرك ضرورة تأسيس « جبهة عربية » ، واعتقد أنه يترتب على سورية أن تقوم بالدور الأهم في تكوين وتوجيه هذه الجبهة ، مع تقويتها على الدوام .

« ولا شك في أن التطور الذي حصل في آراء انطون سعادة كان من شأنه أن يوصله ـ عندما يستمر ـ إلى تطور آخر ، ويحمله على تحويل فكرة « الجبهة العربية » بصورة تدريجية إلى نوع من الفدرالية العربية » .

« هذه هي الفكرة الاساسية التي تكونت في ذهني سنة ١٩٤٨ ، بعد اجتماعي بزعيم الحزب ، واطلاعي على نزعاته الأصلية .

« وقلت في نفسي عندئذ ، « لا شك في أن الرجل سيلتقي بنا في آخر الأمر ، عاجلاً أو آجلاً » .

« ولكن الامور تعقدت بعد ذلك بسرعة كبيرة ، وانتهت انفاس الرجل فجأة ، في ظروف شاذة ، جمعت بين خصائص الملهاة والمأساة » .

ثم قلت ـ بعد دراستي لنشرات الحزب :

« إن هذه الدراسة اطلعتني على السبب الأصلي الذي كان يدفع زعيم الحزب إلى التحامل على « فكرة العروبة » وعلى « دعوة القومية العربية » تحاملاً عنيفاً .

« لأني لاحظت بكل وضوح أن فكرة العروبة كانت تختلط في ذهن انطون سعادة مع معاني البداوة الصحراوية من ناحية ، ومع الحزبية المحمدية من ناحية أخرى : قد توهم الرجل أن فكرة « الوحدة العربية » ما هي الا قناع يتقنع به دعاة الطائفية الاسلامية ، ولذلك أخذ يحمل عليها ، كما كان يحمل على الطائفية بوجه عام .

« وأميل إلى الظن بأن أول من صادفهم وخالطهم من دعاة العروبة وحملة الفكرة العربية كانوا من المسلمين ، وربما كانوا من الرجعيين والمذبذبين ، ولذلك توهم أن كل دعاة العروبة طائفيون ، متسترون أو مقنعون .

« هذه هي خميرة الضلال التي عملت عملها في مشاعر زعيم الحزب ، وأفسدت عليه تفكيره العلمي والسياسي والاجتماعي . هذا هو الخطأ الأساسي الذي جعله ينحرف عن جادة الصواب انحرافاً كبيراً ، ويخالف كثيراً من الحقائق العلمية مخالفة صريحة حتى يناقض نفسه بنفسه احياناً » .

« إن الابحاث التالية ستبرهن على كل ما قلته برهنة قاطعة » .

ثم لخصت رأيي في أنطون سعادة وفي حزبه بما يلي :

« لا يسعني إلا أن أعلن اعجابي بنشاط الرجل واندفاعه ، وتحبيذي لمعظم المبادىء الاصلاحية التي يذكرها في تعاليمه . كما لا يسعني إلا أن اقدر سعيه وراء دعم آرائه السياسية والاجتماعية بنظريات علمية ـ غير اني آسف كل الأسف على « خميرة الضلال » التي استولت على ذهنه ، وأبعدته في كثير من المواقف والامور عن مناحي الأبحاث العلمية ، وحجبت عن انظاره كثيراً من الحقائق الاجتماعية » .

« وكل ما اتمناه الآن من مريدي انطون سعادة ومعتنقي تعاليمه ، هو : أن لا يقفوا جامدين في المكان الذي كان وصل اليه زعيمهم ، ولا يبقوا متمسكين بالموقف الذي وقف عنده هو بتأثير خميرة الضلال التي ذكرتها آنفاً ، بل يواصلوا التطور الذي كان قد بدأه ، وذلك بالتباعد عن مواطن الخطأ ـ التي انزلق اليها مؤسس الحزب ، وبالتخلص من آثار « الخميرة الفاسدة » التي ذكرتها آنفاً .

« وأرى أنه يترتب عليهم أن يقتدوا بزعيمهم الراحل في روح النشاط والتنظيم الذي امتاز به ، دون أن يستمروا في السير وراء خطئه ، فيستنفدوا قواهم في تأييد الأخطاء التي وقع فيها » .

« إني أنشر هذه الأبحاث الانتقادية ، آملاً في مساعدة مريديه على التطور والتقدم ، في سبيل خدمة البلاد العربية ، ونهضة الامة العربية » .

وبعد ذلك استعرضت آراء انطون سعادة وانتقدتها في خمسين صفحة .

إني عملت ذلك بكل تجرد وإخلاص ، وكنت أظن أن مريدي انطون سعادة أيضاً سيقرأون انتقاداتي بتجرد واخلاص ، ويستفيدون منها ، استفادة كبيرة .

إلا أن ما حدث بعد ذلك أعلمني ، اني كنت على خطأ عظيم في هذا الأمل . لأن الجماعة نشأوا على اعتبار « تعاليم انطون سعادة » بمثابة كلام مُنزَل ، يجب بذل الجهود لفهم المعاني المقصودة منه ، دون أن يترك مجالاً للشك في صحته .

إن التفاصيل التالية ، ستظهر هذه الحقيقة إلى العيان :

ـ ٢ ـ

إن أول تعليق ظهر في جريدة الحزب ، كان في « زاوية التسلية العامة » . يخاطب فيها الكاتب « ابن عمه في الضيعة » ، ويقول له ـ جواباً على سؤاله ـ

« إن كتاب العروبة بين دعاتها ومعارضيها لا يسوى الورق الذي طبع عليه » . ومع هذا يرى أن يلفت النظر إلى « أن ساطع الحصري في كتابه هذا أخرج مصر من عروبته . . . » .

ولا أراني في حاجة إلى القول بأن هذا الزعم ـ وهذا الادعاء ـ أدهشني تماماً . لأن ما كتبته عن عروبة مصر ، يبلغ أضعاف أضعاف ما كتبته عن عروبة سائر الأقطار العربية . فإني لم انقطع عن مناقشة عدد كبير من كبار كتاب مصر ومفكريها في أمر العروبة ، منذ عشرين عاماً .

فالقول ـ مع ذلك ـ بأني اخرجت مصر من نطاق العروبة يكون بمثابة انكار وجود الشمس في رائعة النهار . وهو يدل على مبلغ استهتار الجريدة بالحقائق الراهنة . مع استخفافها بعقول القراء .

فأرسلت إلى الجريدة ـ « الجيل الجديد » ـ الكلمة التالية :

« اطلعت أخيراً على الكلمة التهكمية التي نشرتها جريدة « الجيل الجديد » عن كتابي « العروبة » في عددها الصادر في ١٩٥٢/١/٤ .

ما كنت أود أن أعلق على تلك الكلمة ، لو لم اجد فيها من المزاعم ما يشوه آرائي في العروبة تشويهاً صارخاً .

فقد قالت « الجيل الجديد » ـ في جملة ما قالته : « لكن . . . الحصري أبرز أمراً واحداً هاماً جداً ، هو أنه في جميع ما قاله عن العروبة ، وفي جميع ما أعطى من أمثال لم يذكر مصر أبداً . انك لن تجد كلمة مصر في كل ما كتبه حضرته . فهو قد أخرج مصر من عروبته تماماً . فدارت عروبته حول العراق والاردن والشام ولبنان : دويلات الامة السورية » .

أمام هذه المزاعم الغريبة ، لا يسعني إلا أن اقول :

اولاً : إن كتاب « العروبة » الذي تشير اليه جريدة « الجيل الجديد » ، لم يكن اول ما انشره عن القومية العربية . فإني اصدرت في مصر ـ قبل طبع كتاب العروبة في بيروت بنحو ستة اشهر ـ كتاباً عنوانه « آراء واحاديث في القومية العربية » . ان نظرة واحدة إلى الكتاب المذكور تكفي للتأكد من أن محور ابحاثه هو « البرهنة على عروبة مصر ، وتفنيد آراء معارضي الفكرة العربية في مصر » . وإذا لم اناقش قضية مصر في كتابي الاخير ، فإن السبب في ذلك يعود إلى أنني كنت فرغت من مناقشتها في كتابي السابق ، بتفصيلات وافية .

ثانياً : إن كتاب « العروبة » نفسه لا يخلو من ذكر مصر خلافاً لما ادعته « الجيل الجديد » . فإن كلمة مصر مذكورة في اكثر من عشرة مواضع من الكتاب .

مثلاً ، جاء في الصفحة ٥٧ منه ، ما نصه حرفياً : « . . استطيع أن اقول نفس الشيء بكل تأكيد عن سوريا وعن مصر وعن سائر البلاد العربية ايضاً . . .

« إن ما نسميه اللهجة المصرية لا يشمل جميع اقسام القطر المصري . فإن لبلاد الصعيد لهجة خاصة بها ، تتميز عن لهجات سائر أقسام « القطر المصري بأجمعها تميزاً صريحاً . . » .

كما جاء في الصفحة ١٣٥ من الكتاب ما نصه حرفياً : « أن سوريا تشبه تونس اكثر مما تشبه العراق ، والعراق يشبه مصر اكثر مما يشبه سوريا . . . » .

وفضلاً عن ذلك ، فإن الخارطة الزمانية المرسومة في آخر الكتاب تحتوي حقلاً خاصاً بمصر ، يظهر علاقة القطر المصري بسائر البلاد العربية ، منذ قرون طويلة .

فقول جريدة « الجيل الجديد » ، ـ على الرغم من كل ذلك ـ بأنني لم أذكر مصر أبداً ، وبأن القارىء لن يجد كلمة مصر في كل ما كتبته ، بأني أخرجت مصر من العروبة التي أدعو اليها تماماً . . . ما هو إلا افتئات فظيع على الحقيقة والواقع .

ولا بد لي من الاعتراف بأني قرأت هذه المزاعم بحيرة عميقة ، لأني كنت أعلم أن جريدة « الجيل الجديد » تصدر عن حزب اجتماعي سياسي ، يدعو في كل مناسبة إلى بناء السياسة على أسس علمية ، ولذلك ما كنت أظن أبداً ، أنها ستتهرب من مجابهة الحقائق بمثل هذه المزاعم والاساليب » .

والجريدة ، عوضاً عن أن تنشر كلمتي هذه ، نشرت مقالة طويلة ، تشغل اربع صحائف كاملة ، كررت فيها ما جاء في زاوية التسلية ، بدأتها بقولها :

« كنا نود ، والحق يقال ، أن نكتفي بما جاء في زاوية « تسلية للعامة » كرد مفحم على كتاب العروبة الذي وضعه مؤخراً الاستاذ ساطع الحصري . إذ أن التشويشات الصبيانية التي وردت في هذا الكتاب لا تستحق اكثر من أن تكون « تسلية للعامة » لولا الصبغة العلمية التي حاول المؤلف أن يصبغ بها ابحاثه الرامية إلى نقض القومية السورية » .

وبعد ذلك ، أخذت الجريدة ترد على انتقاداتي الواردة في كتاب « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » بسلسلة طويلة من المغالطات الغريبة ، تنثر خلالها على مؤلف الكتاب ـ بكل سخاء ـ انواعاً من النعوت : تبدأ من « الجهل المطبق » و « عدم الادراك » ، وترتقي تدريجياً إلى « الترهات المشوشة » و « الاسفاف المنطقي » ، و « للتخبطات اللاعلمية » ، و « القول الهراء الذي يبدو سخفه لطلاب المدارس الابتدائية » و « ضعف في التحصيل العلمي يترفع عنه طلاب المدارس المتوسطة » ،

وتصـل ـ في آخر الأمر ـ إلى « النفسية المريضة » ،وتنتهي بـ« التمشي مع الخطط الاستعمارية الصهيونية ».

قـرأت كل ذلـك ـ في بادىء الأمـر ـ باستغـراب شديـد . إلا أن استغـرابي زال تماماً ـ عندما وصلت إلى الفقرات الواردة في المقالة تعليقاً على قولي « كل مـا أتمناه الآن من مريدي انطون سعادة ومعتنقي تعاليمه هو : أن لا يقفوا جـامدين في المكـان الذي كان وصل اليه زعيمهم ، ولا يبقوا متمسكـين بالمـواقف التي وقف عندهـا هو ، بتـأثير خميـرة الضلال التي ذكـرتها آنفـاً . بل يـواصلوا « التطور » الـذي كان بـدأه ، وذلـك بالتباعد عن « مواطن الخطأ » التي انزلق اليهـا مؤسس الحزب ، وبـالتخلص من آثار الخميرة الفاسدة التي ذكرتها آنفاً » .

وقد جاء في المقالة ـ تعليقاً على قولي هذا ـ العبارات التالية :

« إننا نود أن نطمئن فيلسوفنا العربي إلى أن مريدي انطون سعادة ومعتنقي تعاليمه سيـواصلون « التطور » ، ولكن في ازدياد فهمهم لتلك التعاليم والتمكن منها ، ومن نظرتها الاصليـة الكاشفـة عن حقائق الكون والحياة والفن . . كشفاً علمياً صحيحاً مبرزاً حيويـة الامة السـورية الكـامنة ، التي هي المرتكز الاساسي في عملية النهوض » .

اذن ، فإن تعاليم سعادة ـ عند مريديه ـ هي المرجع الاول والاخير ، في البحث والتفكـير ، والجهـود التي سيبـذلـونها ستنحصـر في الاستزادة من فهم معـاني تلك التعاليم ، لأنها « تكشف عن حقائق الكون والحياة والفن » .

اذن ، فإن المسلك الذي يسلكـه مريـدو انطون سعـادة لاكتشاف الحقـائق يشبه شبهاً كبيراً المسلك الذي كان يسير عليه بحاثة القرون الوسطى ، حيث كانوا يرجعون في كل شيء ، اما للكتب السماوية ، وامـا لمؤلفات اريستـوطاليس . ويستـرسلون في تحليل وتفسير وتأويل النصوص والكلمات الواردة في تلك الكتب والمؤلفات .

إن مريدي انطون سعادة يعلنون ما يعتقدونه في هذا المضمار بـأفصح العبـارات وأجلاها : إن تعـاليم الزعيم « تكشف » عن كـل الحقائق . ليس « حقـائق السياسـة والاجتماع » فحسب ، بل « حقائق الكون والحياة والفن » أيضاً !

بعـد قراءة هـذه العبارات الصـريحة . لم أعـد استغـرب شيئـاً من سلوك هؤلاء وكتاباتهم : إن ثورة الغضب التي تتملك مشاعر مريدي انطون سعادة أمام الانتقـادات التي توجه إلى زعيمهم « الملهَم والملهِم » ، وكثرة المغالطات الغريبـة التي يلجأون اليهـا للدفاع عن تلك التعاليم . . . كل ذلـك يجب أن يعتبر من « الامور الطبيعية » ، ما دام القوم يؤمنون به هذا الايمان الأعمى : كلام المعلم ، وكلمات التعاليم !

ولهذا السبب لم أعد أرى اية فائدة من مناقشة هؤلاء بالبراهين العلميـة والحجج المنطقية ، فلم احاول الرد على مقالاتهم المختلفة .

واما الفصول التالية التي اكتبها الآن ، فلم أكتبها لمحاجة « المـريدين » الـذين سبق أن كبلوا تفكيرهم بتعاليم انطون سعادة ، انما أكتبها لألفت أنـظار الشبان الـذين لا يزالون يبحثون عن الحق والحقيقة بأساليب التفكير السليمة .

حول حدود سوريا الطبيعية

- ١ -

إن المحور الأساسي الذي تدور حوله آراء انطون سعادة وتعاليمه ، يرتكز على الزعم التالي :

« السوريون أمة تامة ، قائمة بنفسها » .

« والأمة السورية ليست جزءاً من الأمة العربية » .

فقد حاول أنطون سعادة أن يدعم رأيه هذا بـ« نظرية علمية » ، فقال :

إن الأمم تتكون بتأثير البيئة الطبيعية . وسوريا تكوِّن بيئة طبيعية ، متميزة عن سائر البيئات الطبيعية المجاورة لها . ولذلك تكونت هناك « أمة سورية » ، تختلف عن سائر الأمم اختلافاً أساسياً .

واما ما يسمى بـ « العالم العربي » ، فإنه يتألف من بيئات طبيعية متنوعة ، ولذلك لم يكوِّن أمة واحدة ، بل كوَّن أمماً عديدة ، تتميز كل واحدة منها بصفات خاصة بها .

ولكن هذه النظرية ـ على الرغم من مظهرها العلمي ـ بعيدة كل البعد عن الانطباق على حقائق التاريخ والاجتماع .

لأن نظرة واحدة إلى أحوال الأمم ـ الحاضرة والسالفة ـ تكفي للتأكد من أن أوطان الأمم العظيمة تضم ـ بوجه عام ـ بيئات طبيعية عديدة ، كما أن تنوع البيئات التي تستوطنها الأمة الواحدة يوسع امكانياتها ، ويزيدها قوة وحيوية .

ولـذلك ، نستـطيع أن نقـول : أن الربط بـين وحدة الأمـة وبـين وحـدة البيئـة الطبيعية يخالف أثبت حقائق التاريخ والاجتماع مخالفة كلية .

ولعل أبرز وأحسم البراهين عـلى ما نقـول ، هو : آثـار التذبـذب والتخبط التي ظهرت في كتابات انطون سعادة نفسه ، عندما أراد أن يحدد ويخطط البيئة الطبيعية التي أنشـأت الأمـة السـوريـة ، وجعلتهـا ـ عـلى زعمـه ـ مستقلة ومتميـزة عن « الأمم العربية » .

كـان انطون سعـادة يقصـد من تعبـير « الـوطن السـوري » ـ في بـادىء الأمـر ـ « سوريا الطبيعية » المعروفة في الكتب الجغرافية ولكنه بعد ذلك ، عندما ازداد اطلاعـاً على أحوال البلاد العربية غير رأيه في هذا المضمـار ، ووسع حـدود ما يسميـه « الوطن السوري » نحو الشـرق ، وجعله يشمل العـراق . وصار يسمي القـطر المذكـور باسم « سوريا الشرقية » ، وأخذ يدخل العراقيين في عداد السوريين .

ولا أراني في حاجة إلى البرهنة على أن انطون سعادة عندما قال ـ بهـذه الصورة ـ بوحدة سوريا والعراق ، قد هدم بنفسه الأساس الذي كان يبني عليه آراءه السياسية . فإن ما من بـاحث علمي يستطيـع أن يسلم بأن العـراق وسوريـا يكونـان بيئة طبيعيـة واحدة ، متميزة عن سـائر البيئـات الطبيعيـة ، وأن يقول بـأن مدن البصـرة وبعلبك ـ مثـلاً ـ ، أو بغـداد والـلاذقيـة أو المـوصـل وحيفـا . . . متمـاثلة من حيث الأحـوال الطبيعية .

فمها لا مجال للجدال فيه بأن هذه المدن والبلاد انما ترتبط بروابط اللغة والتـاريخ والعنعنات ، لا بعوامل البيئة الطبيعية والمناخ .

ولذلك ، أستطيع أن أقول ، بدون تردد : إن من يقول بوحدة العراق وسوريـا من الـوجهة القـومية ، لا يستـطيع أن يبقى متمسكـاً بـ « نظريـة البيئة الـطبيعيـة » في تكوين القوميات ، بل يضطر إلى تبني نظرية « اللغة والتـاريخ » في هـذا المضمار ، الا إذا خرج على مقتضيات العقل والمنطق ، وحاول الجمع بين المتناقضات .

ـ ٢ ـ

في الواقع أن انطون سعادة انكر حدوث تغير ما في آرائه السياسية ، وادعى بأنـه كان يعتبر العراق جزءاً من سوريا ، منذ بدء حياته السياسية .

ولكن الـطبعة الاولى من كتـابه «نشـوء الأمم » تشهـد عـلى عكس ذلـك شهـادة حاسمة :

إني كنت درست الكتاب المذكور دراسة تفصيلية في كتابي « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » وقارنت بعض الفقرات الواردة في طبعته الاولى مع ما يقابلها في طبعته الثانية ، وأظهرت بذلك « التغير الأساسي » الذي طرأ على آراء انطون سعادة في هذا المضمار ، خلال المدة التي مضت بين طبعتي الكتاب ـ أي بين ١٩٣٨ وبين ١٩٥١ ـ بكل وضوح وجلاء (ص ١٢٠ ـ ١٢٨) .

إن كل من يطالع تلك المقارنات ـ أو يرجع إلى طبعتي كتاب نشوء الأمم ـ يتأكد من أن المؤلف كان يذهب ـ في الطبعة الاولى ـ إلى أن العراق شيء وسورية شيء آخر ، ولكنه ـ في الطبعة الثانية ـ صار يعتبر القطر المذكور من أجزاء سورية الطبيعية ، وسمّاه سورية الشرقية . كما يتأكد من أنه لم يذكر بغداد بين المدن السورية إلا في الطبعة الثانية ، ولم يخلع على الدولة العباسية لقب الدولة السورية العباسية الا في الطبعة المذكورة .

وفضلاً عن ذلك كله ، فقد كتب انطون سعادة في الطبعة الاولى من كتابه عدة فقرات تشير إلى التنازع والتخاصم بين سورية والعراق ، ولكنه حذف تلك الفقرات من الطبعة الثانية ، بعد أن ادخل العراق في حظيرة الوطن السوري الذي يقول به ويدعو اليه .

مثلاً : لقد كتب في الطبعة الاولى من كتاب نشوء الأمم الفقرات التالية :

« لجأ الفرس إلى الشيعة ليحدثوا انقساماً يتخلصون فيه من سيطرة سورية الأموية ، وليستعيدوا استقلالهم ونفوذهم الروحيين والماديين . وتابع العراق الفرس لتصبح السيطرة فيه . وتمسكت سورية بالسنة لكي لا تذوب في العراق وبلاد فارس » (ص ٦٧٥) .

مما يدل دلالة قاطعة على أنه كان يعتبر العراق ـ خلال كتابة هذه الاسطر ـ منفصلاً عن سوريا ، ومتميزاً منها ، كما أنه كان يزعم بأن سورية كانت معرضة إلى خطر الذوبان في العراق وبلاد فارس ، لو لم تتمسك بمذهب السنة .

ولكنه ـ في الطبعة الثانية ـ حذف كلمة العراق من هذه الفقرات كلها ، فقال :

« لجأ الفرس إلى الشيعة ليحدثوا انقساماً يتخلصون فيه من سيطرة سورية الأموية ، وليستعيدوا استقلالهم ونفوذهم الروحيين والماديين ، لتصبح السيطرة فيهم ، وتمسكت سورية بالسنة لكي لا تخضع للفرس » .

إن أمثال هذه التغييرات والتحويرات الاساسية كثيرة في كتاب نشوء الأمم ، الذي كان يعتبره انطون سعادة ، ولا يزال يعتبره مريدوه ، بمثابة الأساس العلمي لتعاليمه السياسية .

لقد بذل خلفاء انطون سعادة جهداً كبيراً لتخفيف وطأة هذه الحقائق التي أظهرتها ـ عن طريق المقارنة بين طبعتي كتاب زعيمهم « العظيم » . ولجأوا إلى ألوان من التأويلات والمغالطات التي تفننوا فيها ، في سبيل الدفاع عنه ، وتنزيهه عما نسب اليه من تغيير الرأي في قضية حدود الوطن السوري .

أنا لا أرى لزوماً لاستعراض تلك التأويلات ومناقشتها . لأني استطيع أن اقدم برهاناً أقوى وأحسم من كل البراهين التي كنت ذكرتها قبلاً : إنه برهان مادي ، لا يترك مجالاً للتأويل بوجه من الوجوه ، إنه خريطة منشورة في جريدة من جرائد الحزب سنة ١٩٣٩ .

يجد القراء في الصفحة التالية صورة زنكوغرافية لعنوان جريدة عربية كانت تصدر في سان باولو ، وتتولى الدعوة إلى الحزب السوري القومي بين المغتربين ، في بلاد المهجر : جريدة سورية الجديدة .

يلاحظ أن اصحاب هذه الجريدة رسموا دائرة وراء منتصف العنوان ، وخططوا داخل الدائرة خريطة مختصرة لما يعتبرونه الوطن السوري . وقد كتبوا حول الدائرة سورية للسوريين ، كما كتبوا تحت العنوان شعار الحزب السوري القومي المعلوم : حرية ، واجب ، نظام ، قوة .

إن نظرة واحدة إلى هذه الخريطة المختصرة تكفي للتأكد من أن حدودها تنحصر فيما يسمى سورية الطبيعية ، ولا يشمل العراق ابدا .

ومما يلفت النظر أن هذه الخريطة كانت تظهر ، مصغرة ، على رأس كل صحيفة في صحائف الجريدة ، كما يلاحظ ذلك في الصورة الزنكوغرافية التي ترينا الوجه الخفي لقصاصة العنوان .

ولا أراني في حاجة إلى القول بأن هذه الخريطة المختصرة لا تترك مجالاً للشك في أن الوطن السوري الذي كان يدعو اليه حزب انطون سعادة ، كان ينحصر عند صدور الجريدة المذكورة ـ اي سنة ١٩٣٩ ـ في سورية الطبيعية ، ويشمل سورية ولبنان والاردن وفلسطين ، ولكنه لا يشمل العراق .

ومما يرويه البعض أن انطون سعادة ، عندما قرر ادخال العراق في نطاق دعوة حزبه ـ أراد في بادىء الأمر أن يختلق اسماً يجمع القطرين ، ونحت من كلمتي سورية وعراقية ، اسم « سوراقية » . ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذه الفكرة ، ورجحت تسمية العراق باسم « سورية الشرقية » .



ويظهر أن الدافع لهذا الترجيح ، كان حرصه على اخفاء التبدل الذي حدث في تفكيره حول حدود « الوطن السوري » .

إن كل من يدرس ما كتبه انطون سعادة حول حدود الوطن السوري درساً مجرداً عن الآراء القبلانية ، يلاحظ أنه كان يتكلم عن البيئة الطبيعية دون أن يحددها ، ويحاول ارجاع الامور اليها دون أن يستقصي خصائصها .

وكل شيء يدل على أن مؤسس الحزب السوري القومي لم يستنبط نظرياته السياسية من درس البيئة الطبيعية كما يدعي ذلك ، بل انما تخيل البيئة الطبيعية التي يشير اليها بالشكل الذي يلائم آراءه السياسية .

إن مقارنة تعريفه الاول للوطن السوري مع تعريفه الاخير له ، تظهر هذه الحقيقة إلى العيان ، بكل وضوح وجلاء :

فلننعم النظر أولاً في التعريف المسطور في « المبدأ الخامس » من دستور الحزب السوري القومي ، الذي « وضع في ٢١ نوفمبر ١٩٣٤ ، وصنف في يناير ١٩٣٧ » - حسب تعبير نشراته الرسمية :

« الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الامة السورية ، وهي ذات حدود تميزها عن سواها ، تمتد من جبال طوروس في الشمال إلى قناة السويس في الجنوب ، شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة ، ومن البحر السوري في المغرب إلى الصحراء في الشرق ، حتى الالتقاء بدجلة » .

يلاحظ أن انطون سعادة حدد الحدود الشرقية هنا بقوله « الصحراء حتى الالتقاء

بدجلة » . في حين أن الصحراء لا تلتقي بدجلة في اي مكان كان ! لأن الفرات يقع في غرب دجلة ، فالصحراء التي يشير اليها الزعيم تلتقي بالفرات ، لا بدجلة . فالقول « الصحراء حتى الالتقاء بدجلة » ينطوي على خلط جغرافي غريب ، يخالف « الدقة العلمية » التي يجب أن تلازم البحث والتفكير .

قد يقول قائل : إن هذا الخلط لا بد أن يكون ناتجاً عن غلط مطبعي أو عن سهو قلم ، ولكن النصوص الصريحة لا تترك مجالاً لمثل هذا التأويل : فإن تعبير « الصحراء حتى الالتقاء بدجلة » يتكرر في كتابات انطون سعادة وخطبه عشرات المرات ، كما أنه تكرر في كتابات مريديه ايضاً عدة مرات .

واما التعريف الذي استقر عليه رأي انطون سعادة في آخر الأمر ، فإنه يوسع حدود الوطن السوري ، ويجعلها تشمل العراق في الشرق وقبرص في الغرب ، ومع ذلك لا يتخلص من خلط الاوضاع الجغرافية وتشويشها تشويشاً غريباً .

فلنقرأ نص هذا التعريف الجديد :

« الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية . وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها، تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي ، إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب ، شاملة شبه جزيرة سينا وخليج العقبة ، ومن البحر السوري في الغرب شاملة جزيرة قبرص ، إلى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق . ويعبر عنها بلفظ عام : الهلال الخصيب ونجمته قبرص » .

يلاحظ أن هذا التعريف يختلف عن التعريف الأول اختلافاً كلياً ، ولكنه لا ينطبق على الحقائق الجغرافية بوجه من الوجوه : ـ لأن جبال البختياري تقع ـ حسب نصوص هذا التعريف في الشمال الشرقي من الوطن القومي الذي يدعو اليه حزب انطون سعادة . واما شرق هذا الوطن فلا يمتد حتى الجبال ، بل يتحدد بـ « قوس الصحراء العربية » و « خليج العجم » . إذن فهو يشمل الجزء الشمالي من العراق ، دون أقسامه الوسطية والجنوبية ، لأن هذه الأقسام تقع ـ كما هو معلوم للجميع ـ في شرق قوس الصحراء العربية . فاذا حاولنا أن نرسم على الخريطة حدود هذا الوطن ـ حسب التعريف الآنف الذكر ـ حصلنا على شكل غريب ، يشبه بعض الشبه « المنطقة الفرنسية » في اتفاقية سايكس بيكو المشهورة .

يتبين من كل ما سبق : ان انطون سعادة أخذ يتخبط خبط عشواء ، عندما شعر بضرورة توسيع حدود القومية التي يدعو اليها ، فقرر أن يدخل العراق في حدود تلك القومية ، دون أن يفسح مجالاً لدخول البلاد العربية الأخرى .

وفضلاً عن ذلك ، أنه خالف أثبت الحقائق الجغرافية ، عندما أراد التمسك بنظريته الاصلية في « تأثير البيئة الطبيعية في تكوين القوميات » ، على الرغم من توسيع حدود القومية التي يقول بها ، شرقاً وغرباً .

إني وصفت هذه القومية بـ « الاعتباطية » لأنها وليدة سوانح مؤسس الحزب وأهوائه ، تتوسع وتتقلص ، تبعاً لتلك السوانح دون أن تستند إلى أساس من اللغة ، او الجغرافيا ، أو التاريخ .

قومية غريبة في بابها : تقفز من سواحل اللاذقية إلى جزيرة قبرص ، مع أن سكان تلك الجزيرة لا يفهمون شيئاً من لغة البلاد السورية ، وتتوقف عند الشاطىء الايمن من قناة السويس مع أن سكان طرفي هذا القنال الضيق ـ مع ما وراءها من بلاد شاسعة ـ يرتبط بعضهم ببعض بأوثق الروابط التاريخية واللغوية والثقافية .

ويؤلمني جداً أن ارى بعض الشبان ينخدعون بدعايات الحزب القومي السوري . . . ذلك الحزب الذي لا يسلم بأن سوريا جزء من الأمة العربية ، ويدعو إلى الايمان بالقومية المتذبذبة التي اراد أن يختلقها انطون سعادة ، بملاحظات اعتباطية .

تأثير البيئة الطبيعية في الاحوال البشرية

لقد لاحظت أن نظرية تـأثير البيئـة الطبيعيـة في الشؤون البشريـة مسيطرة عـلى اذهان الكثيرين من المتنورين في البلاد العـربية ، سيـطرة شديـدة . ولذلـك رأيت من المفيد أن أبحث هذه النظرية من أساسها ، بقطع النظر عن الشكل الذي أضفاه عليها أنطون سعادة .

- ١ -

إن تأثير الاحـوال الطبيعيـة في الحياة البشـرية والـوقائـع التاريخيـة ، لفت أنظار الكثيـرين من المفكرين منـذ العصـور القـديمـة ، وحمـل البعض منهم إلى المغـالاة فيـه مغالاة شديدة .

ففي اواسط القرن الثامن عشر استرسل مونتسكيو في بحث هذا التـأثير . وزعم أن اخلاق الأمم ونظم الدول ووقائع التاريخ . . . تتبع الأحـوال الطبيعيـة وخصائص المناخ ، بوجه عام .

إلا أن الابحـاث العلميـة التي تمت منـذ عهـد مـونتسكيـو لم تؤيـد هـذه الآراء والنظريات . بل برهنت ـ بعكس ذلك ـ على أن العـوامل الـطبيعية تحـدد الامكانيـات بعض التحديد ، ولكنها لا تحتم الأحداث بصورة قطعية . كما أثبتت أن تـأثير الـطبيعة في الامـور البشريـة يكـون قـويـاً عنـد الأقـوام البـدائيـة ، ولكنـه يضعف عنـد الأمم المتمدنة ، ويزداد ضعفاً كلما تقدمت الأمم في طريق الحضارة .

وذلك لأن الانسان لا يبقى جامداً امام تأثيرات الطبيعة ، بل يسعى إلى مغـالبة تلك التأثيرات ، فإنه ينفعل ويتأثر من الطبيعة من ناحيـة ، ولكنه يقـاومها ويؤثـر فيها

من ناحية اخرى . إنه يسعى على الدوام للتخلص من سيطرتها بصور شتى . وإذا لم يستطع التخلص منها تماماً ، فهو يتوصل إلى تخفيف وطأتها إلى حد كبير . حتى أنه ينجح في تسخير الكثير من قواها لخدمة مصالحه ، بأساليب مختلفة .

ولا نخطيء ـ والحالة هذه ـ إذا اعتبرنا تاريخ الحضارة بمثابة قصة كفاح الانسان ضد الطبيعة . وفي الحقيقة أن صفحات ذلك التاريخ ، تقص علينا مناقب انتصار البشر على الطبيعة في مختلف الميادين ، وتطلعنا على مراحل تقدم الانسان في سبيل استخدام القوى الطبيعية لتطمين حاجاته المادية والمعنوية .

ولهذه الأسباب كلها ، نستطيع أن نقول : أن الذين يزعمون بأن الشؤون البشرية تتبع احوال البيئة الطبيعية تبعية شديدة ، يخطئون خطأ عظيماً .

ـ ٢ ـ

فلننعم النظر في أقوى الأمثلة التي تخطر على البال لإظهار تأثير الاحوال الطبيعية في الشؤون البشرية .

إني اعتقد أن بريطانيا العظمى من أحسن الأمثلة وأبرزها في هذا المضمار . لأنها تكوّن بيئة طبيعية صريحة الحدود وواضحة المعالم . فإنها منفصلة عن القارة الأوروبية انفصالاً تاماً . فلا شكّ في أن تأثير الأحوال الطبيعية في الأحوال البشرية يجب أن يظهر في مثل هذه البيئة بأجلى المظاهر واوضح الاشكال .

من المعلوم أن بريطانيا العظمى ، هي اقوى الدول البحرية في العالم ، بعد الولايات المتحدة الامريكية . وكانت إلى وقت قريب اقوى الدول البحرية على الاطلاق . وهي كذلك في ميادين الصناعة والتجارة . كما أنها اعظم الدول الاستعمارية التي عرفها التاريخ ، منذ أقدم الأزمنة إلى الآن : والشمس لا تغيب إلى الآن عن ممتلكاتها المنبثة في جميع القارات ومختلف البحار .

إن هذه الاحوال البشرية ، تبدو في الوهلة الاولى ـ مرتبطة ارتباطاً تاماً بالأحوال الطبيعية : جزيرة كبيرة ، توفر فيها كل ما يلزم من الشروط الطبيعية لازدهار الملاحة والتجارة والصناعة . مساحتها تناهز تسعة امثال مساحة جزيرة صقلية ، وتقرب من سبعة أمثال مساحة هولندا . سواحلها كثيرة التعاريج . وبين هذه التعاريج عدد كبير من الخلجان الطويلة والعميقة ، معظمها في حالة موانيء طبيعية ، بعضها على بحر الشمال وبعضها على بحر المانش ، وبعضها على الاوقيانوس الاطلسي الفسيح . ويفصل هذه الجزيرة الكبيرة عن القارة الاوروبية مضيق كاليه العريض ، الذي يتسع لحركات أكبر الأساطيل التجارية والحربية .

وآثار المد والجزر تظهر على شواطيء هذه الجزيرة وخلجانها كل يوم ظهوراً بارزاً . والمدّ يرفع مستوى المياه في انهارها ارتفاعاً محسوساً ، يحوّلها خلال ساعات عديدة من كل يوم إلى خلجان عميقة ، تساعد على تغلغل السفن في داخل البلاد ، إلى مسافات كبيرة .

وفضلاً عن ذلك كله ، فإن طبقاتها الأرضية غنية بفلزات الفحم والحديد ، مما يسهّل تحويل الحديد إلى الصلب بكلفة قليلة . ومن المعلوم أن الصلب من اهم المواد الضرورية لصنع المكائن والسفن على اختلاف انواعها ، والفحم الحجري من اهم الوقود الذي يحرك المكائن البخارية في المصانع ، والسكك الحديدية ، والمراكب البحرية .

وخلاصة القول : إن الطبيعة قد زوّدت بريطانيا العظمى بكل الشروط التي تساعد على قيام دولة قوية في ميادين الصناعة والتجارة والملاحة ، ولا حاجة إلى القول بأن القوة في هذه الميادين تدفع إلى الاستعمار ما وراء البحار ، وتضمن النجاح فيه إلى اقصى حدود الامكان .

أمام هذه الحقائق التي سردناها آنفاً ، يميل الذهن ـ بطبيعة الحال ـ إلى الحكم بأن السبب الأساسي لتقدم بريطانيا العظمى في هذه الميادين ، انما يرجع إلى هذه الميزات الطبيعية التي تتمتع بها هذه الجزيرة الكبيرة .

ـ ٣ ـ

ولكن شيئاً من التأمل في وقائع التاريخ ، يكفي للتشكيك في صحة هذا الحكم الذي يبدو ـ في الوهلة الاولى ـ من الامور التي لا مجال للشك في صحتها .

ذلك لأن بريطانيا العظمى لم تصبح دولة بحرية ـ على الرغم من توفر جميع هذه الشروط الطبيعية ـ الا في القرون الاخيرة منذ مدة تقل عن اربعة قرون .

كما أنها لم تحرز مكانة تذكر في ميدان الصناعة ، الا بعد ذلك بمدة تناهز القرنين .

واما فلزات الحديد والفحم الحجري التي تزخر بها هذه الجزيرة الكبيرة ، فلم تلعب دوراً يستحق الذكر في حياتها الاقتصادية والاجتماعية ، الا منذ مدة لا تزيد كثيراً على القرن ونصف القرن .

نعم ، ان بريطانيا العظمى لم تدخل في عداد الدول البحرية الا في القرن السابع عشر . واما سيطرتها على البحار فلم تبدأ إلا في اواسط القرن الثامن عشر .

إذا استعرضنا الحروب البحرية التي سجلها التاريخ منذ القرون الاولى ، لا نصادف بينها أي ذكر لبريطانيا العظمى ، الا في القرون الاخيرة .

وإذا تصفحنا تاريخ الاستعمار الاوروبي منذ نشأته ، لا نجد فيه اسم بريطانيا العظمى الا في وقت متأخر نسبياً .

فإن الاسبان والبرتغاليين ، والهولنديين ، وحتى الفرنسيين قد سبقوا البريطانيين في هذه الميادين .

هذه حقيقة هامة ، يجب أن لا تغرب عن البال في هذا المضمار : إن بريطانيا العظمى كانت من البلاد الزراعية البحتة حتى القرن السابع عشر . كان سكانها يشتغلون بفلاحة الارض وتربية الابقار والاغنام . كانوا ينتجون من القمح ما يزيد على حاجتهم ، فيصدرونه إلى اسبانيا . وكانوا يحصلون على كمية كبيرة من الصوف ، يبيعونها إلى الهولنديين .

ولكنهم كانوا محرومين من معامل تنسج لهم ولو قسماً من هذا الصوف ، فكانوا يستوردون الأقمشة التي يحتاجون اليها من هولندا (ومن الثابت في التاريخ : أن اول معمل لنسج الصوف في انكلترا ، قد انشيء سنة ١٥٨٩ ، على يد بعض اللاجئين) .

وفضلاً عن ذلك كله ، فإن نقل الصوف من بريطانيا إلى هولندا ، والأقمشة من هولندا إلى بريطانيا ما كان يتم على يد تجار من البريطانيين وبواسطة سفن بريطانية ، ولكنه كان يتم على يد تجار من الهولنديين ، وبواسطة سفن هولندية .

وخلاصة القول : إننا إذا رجعنا بانظارنا إلى اوائل القرن السابع عشر - إلى سنة ١٦٠٠ مثلاً - وجدنا أن بريطانيا العظمى - التي اعتدنا أن نقول عنها « أن الشمس لا تغيب عن ممتلكاتها » - ما كانت تملك شبراً من الارض خارج اوروبا ، كما أنها كانت محرومة من معامل تكفي لاكساء سكانها ، ومن اساطيل تكفل المناقلات التجارية بينها وبين البلاد الاوروبية القريبة منها ، فضلاً عن البلاد النائية ، ما وراء البحار والقارات .

إن الحقائق التي ذكرتها هنا ، قد تبدو في منتهى الغرابة لأذهان الذين تعودوا « أن يقيسوا الماضي على الحال » غافلين عن « تبدل الاحوال في الامم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الايام » - حسب تعبير ابن خلدون البليغ - ولكنها حقائق ثابتة ، لا مجال لانكارها .

ولعل ما كتبه « السر والتر رالي » - في اوائل القرن السابع عشر - ، في صدد

المقارنة بين بريطانيا وبين هولندا ، اوضح وأقطع دليل على ما أقول :

« إن البحرية البريطانية لا يمكن أن تضاهي بحرية الهولنديين . لقد اصبحت هولندا الآن ، مثل صور في العصور القديمة ، ومثل البندقية في العصور الحديثة ، مخزناً لبضائع لا تحصى . إن ما يستهلكه الهولنديون من تلك البضائع يكاد يبلغ الواحد في المائة . إنهم يأتون للمتاجرة معنا كل سنة بخمسمائة بل ستمائة سفينة ، لكن ما نرسله نحن إلى بلادهم يكاد يبلغ الثلاثين أو الاربعين سفينة . إن السفن التي يملكها الهولنديون ، تعادل مجموع السفن التي تملكها جميع الدول المسيحية الأخرى . إنهم ينشئون كل سنة نحو الف سفينة . مع أنه لا توجد في بلادهم شجرة واحدة ، كما أن مجموع ما تنتجه تلك البلاد لا يكفي لتحميل مائة سفينة . . . » .

إن الرجل الذي كتب هذه الأسطر ، كان من كبار خبراء الشؤون البحرية في ذلك العهد . وكان في طليعة البريطانيين الذين بذلوا اقصى الجهود لتوجيه انظار مواطنيهم نحو الشؤون البحرية ولحمل حكومتهم على انشاء الاساطيل .

فما كتبه في هذا المضمار يكتسب أهمية خاصة ، بهذا الاعتبار .

- ٤ -

اذن نحن أمام حقائق هامة جداً :

إن الملاحة والصناعة والتجارة ، في أوائل القرن السابع عشر كانت في منتهى الضآلة في بريطانيا العظمى ، على الرغم من توفر جميع الشروط الطبيعية التي تساعد على ازدهارها ، ولكنها كانت في غاية الازدهار في هولندا ، على الرغم من نقص الشروط الطبيعية فيها .

وبتعبير اقصر : كانت هولندا أرقى البلاد في ميادين الصناعة والتجارة والملاحة ـ على الرغم من بخل الطبيعة نحوها ـ في حين أن بريطانيا العظمى كانت متخلفة جداً في هذه الميادين على الرغم من سخاء الطبيعة لها .

ولتكوين فكرة أوضح عن وضع هولندا في هذا المضمار ، يجدر بنا أن نتذكر الكلمة الشائعة بين اهاليها :

« إن الله خلق البحار . أما الشواطىء ، فنحن صنعناها ! » .

أعتقد أن هذه الحقائق تكفي لاظهار الخطأ العظيم الذي يقع فيه الكتاب الذين يغالون في تقدير مبلغ تأثير الطبيعة في البشر ، فيزعمون أن البيئة من اهم العوامل التي تسير الشؤون البشرية .

- ٥ -

ومما تجدر الاشارة اليه : إن البحر الذي يفصل بريطانيا العظمى عن القارة الاوروبية لم يحمها من غارات الاقوام البرية ، الا بعد أن تكونت فيها امة متماسكة ، تشعر بشخصيتها ،ودولة قوية تدافع عن بلادها . وقد سبق أن استولى عليها في تواريخ مختلفة : الرومان ، والانكل ، والسكسون ، والبره تون ، والنورمان . . . واثروا فيها تأثيراً عميقاً ، ولا نغالي إذا قلنا : إنهم خلقوها خلقاً جديداً . ويجب أن لا يغرب عن البال ، أن تنظيمات الدولة الاساسية في بريطانيا بدأت بالغزو الروماني . والديانة المسيحية لم تأتِ إليها وتنتشر فيها الا بعد هذا الغزو . كما أن لغة بريطانيا الحالية أتتها مع الانكل والسكسون ، وآخر تشكيلاتها الحكومية قامت على يد النورمان . ومن المعلوم أن الرومان ، أتوا من جنوب اوروبا ، والانكل والسكسون ، نشأوا في غابات جرمانيا ، في اواسط اوروبا . والنورمان جاؤ وا من البلاد الشمالية .

إن الاحوال التي نشاهدها الآن في الأمة البريطانية ، انما نتجت عن تلاحق وتفاعل وتمازج تأثيرات هذه الاقوام المختلفة مع سكانها القدماء : فإن هذه الاقوام المختلفة ، حملت إلى بريطانيا تقاليدها ومعتقداتها ولغاتها الخاصة التي كانت قد تكوَّنت في بيئات طبيعية مختلفة ، وصارت تتفاعل ، تتنازع وتتمازج ، في هذه البيئة الجديدة .

يظهر من ذلك كله ، أن تعليل خصائص الأمة البريطانية بتأثير البيئة الطبيعية وحدها ، يكون تعليلاً سطحياً ، يخفي عن الانظار كثيراً من العوامل الاجتماعية والتاريخية الحقيقية .

إن البيئة الطبيعية لم تكن العامل الوحيد ، ولا العامل الرئيسي ، في تكوين الأمة البريطانية .

- ٦ -

أعتقد أن هذه الحقائق التي توصلنا اليها ، بالنظرات التأملية التي ألقيناها على تاريخ بريطانيا وأحوال البريطانيين ، تغني عن البحث في أمثلة أخرى ، لأن ، مما لا مجال للشك فيه أن البيئات الطبيعية التي تكون اقل تحديداً وانعزالاً من بيئة بريطانيا العظمى ، تكون ـ في الوقت نفسه ـ اضعف أثراً في الامور البشرية ، وأقل سيطرة عليها .

فإذا ألقينا نظرة سريعة مثلاً على أحوال فرنسا ـ التي هي أقرب البلاد إلى بريطانيا العظمى من الوجهة الجغرافية ـ وجدنا أنها تتألف من بيئات ومناطق طبيعية عديدة ومختلفة ، لم تجتمع تحت حكم واحد ، فلم تصبح وطناً موحداً لأمة واحدة ،

إلا من جراء سلسلة طويلة من الوقائع الحربية والسياسية والتطورات الاجتماعية .

لقد بحث وكتب عدد كبير من المفكرين والمؤرخين في نشوء فرنسا ، وفي المراحل التي قطعتها إلى حين وصولها إلى وحدتها الحالية . إنهم استقصوا احوال الأقوام التي عاشت فوق أراضي فرنسا الحالية ، في مختلف الادوار من التاريخ ، وتتبعوا الوقائع والتفاعلات التي حدثت بين تلك الأقوام بكل تفصيل .

فقد اختلف الباحثون فيما بينهم في تعيين « الاقوام » التي كانت أقوى وأعمق تأثيراً في تكوين الامة الفرنسية ، وفي تحديد « الوقائع » التي لعبت أهم الادوار في تحويل وتوجيه « تيار التاريخ » في فرنسا . ومع ذلك فقد اتفقت كلمة الجميع في أمر واحد ، وهو : إن فرنسا تكوَّنت بفضل سلسلة طويلة من الوقائع الحربية ، والاعمال السياسية .

ولم يحاول أحد منهم تعليل هذه الامور بخصائص البيئة الطبيعية . حتى أنهم لم يذكروا البيئة الطبيعية الا للاشارة إلى تنوعها ، وللاشادة بالقوة التي اكتسبتها فرنسا من هذا التنوع ، الذي زاد في إمكانياتها زيادة كبيرة .

إن كل الابحاث توصلنا إلى الحقائق التالية :

ما من أمة يمكن أن تعتبر وليدة بيئة طبيعية واحدة .

وقلما انحصرت حياة أمة من الأمم في نطاق بيئة طبيعية معينة .

وكثيراً ما غيرت الاقوام البيئة الطبيعية التي كانت تعيش فيها .

وكثيراً ما جمعت ومزجت البيئة الواحدة عدداً غير قليل من الاقوام التي تسربت اليها من مختلف البيئات ، بشتى الاساليب ، في مختلف الازمان والعصور .

وجميع الأمم التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ ، انتشرت على بيئات طبيعية عديدة ومتنوعة .

ونستطيع أن نؤكد على أن الأمة ، كلما كانت عظيمة ، تنوعت وتعددت البيئات الطبيعية التي اصبحت وطناً لها . . ومسرحاً لنشاطها .

اعتقد أن هذه الحقائق لا تترك مجالاً للشك في خطل رأي الذين يزعمون « أن الأمة وليدة البيئة الطبيعية » فينكرون وجود الامة العربية ووحدتها ، بحجة تنوع البيئات الطبيعية في العالم العربي .

نظرات إلى تاريخ الأمة العربية

- ١ -

إني كنت تكلمت في محاضرة ألقيتها في نادي المثنى ببغداد قبل نحو ربع قرن ، عن « الايمان القومي » بوجه عام ، وعن ضعفه في بلادنا بوجه خاص وقلت :

« أما أسباب هذا الضعف وعوامله ، فهي كثيرة جداً . غير أن أهمها يعود ـ في نظري ـ إلى سوء نظرنا إلى تاريخ الأمة العربية من جهة ، وعدم توسعنا في درس تواريخ نهضات الأمم المختلفة من جهة أخرى ».

وشرحت رأيي في هذا المضمار بهذه العبارات :

« من المعلوم أن أمجاد الماضي من أهم عوامل الأمل ، ودوافع الايمان بالمستقبل ، وذلك لأن المرء عندما يجد في ماضي أمته كثيراً من الصفحات المجيدة ، يزداد إيماناً بإمكان استعادة ذلك المجد ، ويشتد إندفاعاً للعمل في هذا السبيل . ولكنه عندما يرى في الماضي كثيراً من الصفحات السوداء يصبح أضعف إيماناً بإمكان النهوض ، وأقل إندفاعاً للعمل في هذا السبيل .

« ولا حاجة إلى القول أنه ما من أمة خلا تاريخها من أدوار إنحطاط وصحائف سوداء ، وما من أمة استطاعت أن تبقى ـ طول تاريخها ـ قوية ناهضة على الدوام . فإن تاريخ كل أمة من الأمم يتألف عادة من أدوار إرتقاء وإنحطاط ، ويعرض للأنظار تارةً صحائف سوداء وطوراً صحائف بيضاء ، تارةً عهود أمجاد وطوراً عهود نكبات . وعندما يستعرض المرء تلك الأدوار وتلك الصحائف ، قد يبقى تحت تأثير المجيدة منها فيزداد إيماناً بإمكانيات أمته ، وقد يبقى تحت تأثير السوداء منها فيصبح يائساً من مستقبلها .

« إني كثيراً ما صادفت بين الشبان من ينظر إلى التاريخ العربي بمثل هذه المناظر السوداء ، ومن يستخرج منه أحكاماً تثبط العزائم وتؤدي إلى اليأس والقنوط ».

وذكرت أمثلة عديدة على ذلك ، وانتقدت تلك الأمثلة بتفصيل ، ثم قلت :

« إن تاريخنا كثيراً ما يبدو - من بين الكتب التي نتداولها - « تافهاً وهزيلاً »، بالنسبة إلى التواريخ الغربية « الناصعة المجيدة » ولكن السبب في ذلك لم يكن تفاهة تاريخنا نفسه ، بل هو رداءة الكتب التي تعرض لنا ذلك التاريخ . فإن الكتب التي نقرأها عادة عن تواريخ الغربيين مكتوبة بنظرة علمية ، وخطة تربوية ، ونزعة قومية ، في وقت واحد . على حين أن الكتب التي نقرأها عن تاريخنا بعيدة وخالية من النظرات العلمية والخطط التربوية ، والنزعات القومية في وقت واحد ».

وبعد ذكر الأمثلة ، ختمت البحث المذكور بقولي :

« إن أول الواجبات التي يتحتم علينا القيام بها لتقوية الايمان القومي هو كتابة تاريخنا على نمط جديد ، بعقلية غربية ونزعة قومية ».

- ٢ -

والآن ، بعد مرور هذه السنين الطوال على تاريخ إلقاء تلك المحاضرة ، أرى أننا لم نقطع شوطاً كبيراً في هذا المضمار .

فالمكتبة العربية لا تزال محرومة من مؤلفات تاريخية تستجمع الشروط التي ذكرتها آنفاً .

في الواقع ، قد صدرت في بعض الكتب وبعض المجلات عدة أبحاث تاريخية ، لا تخلو من مظهر الجدة . ولكنها لا تزال بعيدة كل البعد عن المناحي العلمية الحقيقية ، ومجردة تجرداً تاماً من النظرات الاجتماعية الشاملة .

وبينها . . . ما ينم عن نزعة شعوبية جديدة ، تميل إلى استصغار شأن الأمة العربية في كل شيء .

وبينها ، ما يدل على روح تشاؤمية ، تلوّن كل شيء بألوان سوداء .

وبينها . . ما ينم عن التفكير اليائس الذي يعتبر كل النقائص متأصلة في نفوس العرب ، ويزعم أنه لا سبيل إلى التخلص منها ، بوجه من الوجوه .

في الصحائف التالية ، بعض النماذج البليغة لهذه الأنواع من الأبحاث التاريخية .

العرب وغريزة الإحساس بالمستقبل

- ١ -

نشرت مجلة الثقافة مقالة بقلم الدكتور حسين مؤنس ، تحت عنوان « مستقبل العرب ».

تبدأ المقالة بوصف حالة البلاد العربية والدول العربية من حيث التفكير بالمستقبل والعمل للمستقبل ، فتقول :

« الدوائر السياسية في بلاد العرب مشغولة بأمر المستقبل : كل دولة تفكر في أمر غدها ، وتدرس الأوضاع السياسية العامة لتعرف أي طريق تسلك ، وتقرر من الآن الموقف الذي ستتخذه إذا وقعت الحرب في الغد أو بعد الغد . والجامعة العربية تنظر في موقف العرب جملة ، وتدرس علاقاتهم بهذه الدولة أو تلك ، لتوجه سياسة العرب جميعاً وجهة عربية ، فمجالس تجتمع وتنفضّ ، ولجان تنعقد وتنتثر ، وتقارير تكتب وتقرأ وتدرس ، وبيانات تعطى أو تطوى ، وخطابات تلقى وتذاع ، وتصريحات تتفرق ذات اليمين وذات الشمال . . » . « وفيما بين ذلك كله تكتب صحف العرب في الموضوع ، فلا تفتح صحيفة إلا قرأت فيها أن العرب ينبغي لهم أن يصنعوا كيت وكيت ، ويفعلوا كذا وكذا ، والصحفيون يهرعون إلى الكبار والزعماء وأولي الحل والعقد يستفتون ويسألون ويستجوبون ، وفي كل يوم تظهر الصحف حاملة ثروة ضخمة من الكلام والآراء . « وما نتيجة ذلك كله ؟ لا شيء . . . » . « لم تقرر دولة عربية موقفها في شيء من الوضوح ، ولم تتخذ واحدة منها موقفاً تستطيع تحديده ، ولم توفق الجامعة العربية إلى توجيه العرب وجهة واحدة . كل شيء يجري وحي الساعة والمصادفات : في مسألة كوريا وقف العرب مواقف متعددة ، وفي مسألة الصين خرج العراق ولبنان عن إجماع العرب ».

إلى هنا ، وصف الكاتب حالة السياسة العربية وصفاً لا غبار عليه .

ولكنه بعد ذلك زعم بأن الحالة لن تتغير ، لأنها نتيجة طبيعية للنفسية العربية ، وإن هذه النفسية محرومة من الاحساس بالمستقبل ، فلا يمكن أن تكتسب هذا الاحساس ، لأن المسألة هنا « مسألة طبع وتكوين ، وليست مسألة يقظة أو غفلة » .

وذلك كله يعني : إن هذه الحالة ستستمر على مرّ الأيام مهما فعلنا ، لأننا لا نستطيع أن نغير طبائع الناس .

هذا هو الدرس الذي يستخرجه الكاتب من أبحاثه التاريخية ، وهذه هي النتيجة التي ينتهي إليها من تأملاته التفلسفية .

- ٢ -

ولكي لا يتوهم القارىء بأني أغالي في تقتيم هذا الرأي ، أنقل فيما يلي أهم الفقرات الواردة في المقالة حول هذه القضية .

يقول الكاتب عقب الكلمات التي نقلتها آنفاً :

« وأحب أن أريح القارىء من عناء هذا الموضوع وأؤكد من الآن أن العرب لن يتخذوا قراراً لا فرادى ولا جماعة : ولن تحدد دولة منهم موقفها ، وإنما ستجيء الحرب وستجد كل دولة نفسها في مكان ما ، حسب ما تمليه الظروف ، وحسب ما تقرره الدول الكبرى . . . بالضبط كما حدث أمس وأول أمس ، وكما جرى في تاريخ العرب الطويل . . » .

« ولست أقول هذا الكلام رجماً بالغيب ولا شقشقة كتابية . وإنما أقوله على حقيقة مقررة من حقائق النفس العربية والشرقية عامة ، وهي : إن الإحساس بالمستقبل غير موجود في هذه النفس ، ولفظ الغد لا يعني في حسابها شيئاً ، إنما الشرقي رجل يعيش في يوم ليوم ، يشغله أبسط حاجات يومه عن أكبر حاجات غده ، ويشغله طعام الساعة عن مئونة الساعة التي تليها .

« ولكي أوضح هذه الحقيقة أقول : إن الإحساس بالمستقبل ملكة خاصة توجد مركبة في نفوس بعض أجناس البشر ولا توجد عند غيرها ، وتتربى وتنمو عند بعضها ، ولا تنمو عند بعضها الآخر - والمراد بها ذلك الإحساس الغريزي العميق الذي يحفز الانسان على التفكير في أمر الغد والاهتمام بشؤونه والتدبير له . وهي ملكة تلاحظها عند الغربيين فرادى وجماعات . . . ولكنا لا نجدها عند العرب وعند الشرقيين . . » .

ثم يحاول الدكتور تعليل هذه الحالة ، وتبيين أسباب وجود هذا الإحساس في الغرب وفقدانه عند العرب - بأحوال البيئات التي نشأوا فيها . وبعد ذلك يسرد سلسلة من الوقائع التاريخية التي يعتبرها دالة على عدم وجود الاحساس بالغد عند العرب ، (سنعود إلى بحث هذه التعليلات والاستشهادات فيما بعد) وينتهي من كل ذلك إلى الكلمات التالية :

« وعسى من يقول : كان هذا في الماضي ، أما اليوم فقد أفاق العرب واستيقظوا . وذلك وهم شديد . فلا زلنا كما كنا لا نفكر إلى أبعد من أنوفنا ، وأحداث السنوات الماضية تنطق بأجلى بيان ، وذلك لأن المسألة هنا مسألة طبع وتكوين ، وليست مسألة يقظة وغفلة ، ولن نستطيع مهما فعلنا أن نغير طبائع الناس ».

وبعد هذا الحكم القاطع البتار ، يقول الكاتب :

« أتحب أن تعرف كيف يكون موقف أممنا إذا جد الجد ووقعت الكارثة ؟ إذاً فسل أولئك الذين وهبهم الله إحساس الغد والاهتمام بأمره . سل أولئك المقيمين في لندن وموسكو وواشنطن . هؤلاء هم الذين يعرفون . أما نحن ، فهمّنا يوم ، يوم مما يعدون أو مما لا يعدون ، يوم والسلام ».

أفلا يعني ذلك أنه : من العبث أن نسعى لمكافحة هذه النزعة ، ولا فائدة من السعي وراء إيقاظ العرب من هذه الغفلة ، ودعوتهم إلى الاهتمام بالغد ، لأن هذه من الطبائع المركبة في نفوس العرب ، وليس في الإمكان تغيير طبائع الناس !

إني لا أدعو قط إلى تجاهل نقائصنا ، لا في الحال ولا في الماضي ، وبعكس ذلك أدعو إلى البحث عن هذه النقائص ، والسعي وراء إزالتها من نفوسنا .

ولكني أعترض على كل من يذهب إلى أن هذه الأحوال لا يمكن أن تتغير ، ويطلع علينا بنظرية تنتهي إلى تثبيط الهمم والعزائم ، وتوقيف جهود الاصلاح . . . وتكون بمثابة الدعوة إلى الاستسلام إلى الأحوال الراهنة ، بحجة أنها من « مقدرات الطبيعة والتاريخ » التي لا تغلب .

إذا سلمنا بهذه النظرية وبهذه الآراء وجب علينا أن نستسلم إلى المقدرات التي رسمتها لنا الطبيعة والتاريخ . ونكف عن السعي وراء إيقاظ العرب في هذا المضمار ، ودعوتهم إلى التفكير بأمور الغد ، وعن مخالفة إرادة الله التي وهبت الغرب غريزة الاحساس بالغد والاهتمام بأمره ، وحرمتنا نحن العرب من تلك الغريزة .

- ٣ -

يظهر من كل ما تقدم أننا أمام مسألة خطيرة النتائج جداً ، فلا يجوز لنا أن نمر بها مرور الكرام ـ بل يجب علينا أن نجعلها موضوع بحث جدي وعميق ، لنتأكد من صحتها أو عدم صحتها .

ولذلك رأيت أن أبحث :

أولاً : هل للأمم طبائع ثابتة لا تتغير ؟

ثانياً : هل ظلت الأمة العربية طوال تاريخها ، محرومة من غريزة الإحساس بالغد حقيقة ؟

ثالثاً : هل أن الفرق بين الغرب والعرب ـ من حيث الإحساس بالغد أو عدم الاحساس به ـ نتيجة طبيعية للبيئات التي نشأ وعاش فيها كل فريق ، منذ القدم ؟

إني سأبحث هذه القضايا ، بحثاً علمياً بحتاً ، مجرداً عن الآراء القبلانية ، ودون أن أترك مجالاً لتأثير العاطفة في الأمر .

أولاً : هل للأمم طبائع ثابتة لا تتغير ؟

إن نتائج الابحاث العلمية التي حامت حول هذه المسألة ، في مختلف البلاد الغربية ، انتهت إلى إنكار وجود طبائع ثابتة في الأمم .

إني كنت فصلت هذه الآراء في المحاضرة التي أشرت إليها ، مستشهداً بأقوال أحدث وأشهر علماء الاجتماع ، وبُحّاث التاريخ .

أنقل فيما يلي بعض تلك الأقوال :

قال الباحث الاجتماعي المعروف كولا جانتي : « أنا أسلم بوجود بعض الأوصاف النفسية الخاصة ، في بعض الأفراد والجماعات ، غير أني أنكر قول الذين يزعمون أن هذه الأوصاف تكون ملكاً خاصاً ـ أو ميزة فطرية خاصة ـ لجنس أو قوم أو أمة . وأنكر بوجه خاص رأي الذين يزعمون بأن تلك الأوصاف تكون مستقرة في حياة الأمم وغير متبدلة . إذ لا شيء ثابت ومستقر في أوصاف الأقوام وأمزجتها . وأما ما نشاهده الآن من الخصائص عند الأقوام ، فإنما هي خصائص الصفحة الحالية وحدها » .

وقد قال المفكر الاجتماعي « تارد » : « إننا إذا رجعنا إلى ماضي الأقوام التي نراها الآن في أوج العظمة والمجد ، متصفة بقوة الارادة وشدة الأقدام ، وجدنا أنها كانت فقيرة ضعيفة ومحرومة من قوة الاقدام . وبعكس ذلك ، الأمم التي نراها الآن في حالة الانحطاط ، فإننا إذا إستعرضنا ماضيها ، وجدنا أنها كانت مثالاً للبطولة ، وممتازة بروح الاقدام والمغامرة » .

ونفهم من ذلك كله : إن خصال الأقوام وسجاياها تتغير بتغير أطوارها وأحوالها التاريخية .

وقد عبر « جان فينو » عن هذه الحقيقة بهذا القول البليغ :

« إن مثل من يبحث عن الاستقرار في نفسيات الأقوام كمثل من يزعم أن الدوائر التي تحدث على سطح الماء عند إلقاء حجر عليها تحافظ على شكلها إلى الأبد » .

وأنا أستطيع أن أقول ـ إستناداً إلى أقوال هؤلاء وأبحاثهم ، مع أقـوال وأبحاث الكثيرين أمثالهم :

إنا ولو فرضنا وسلمنا بأن العرب كانوا محرومين من غريـزة الاحساس بـالغد في الماضي ، لا يجوز أن نقول ـ بناء عـلى ذلك ـ أنهم سيبقـون محرومـين منها في المستقبـل أيضاً .

وبعد الوصول إلى هذه النتيجة ، يجدر بنا أن نتساءل : هل يشهد تاريخ العرب حقيقة على حرمانهم من غريزة الاحساس بالغد ؟

إن الدكتور حسـين مؤنس ، يدعي ذلـك ، مستشهداً بـالتاريـخ ، ويقدِّم عـلى شواهده التاريخية قصة غريبة إذ يقول :

« وعندنا قصة لطيفة تمثل نـظرة الشرقي للمستقبـل أصدق تمثيـل : قصة شـائعة ، يعـرفها كـل الناس ، تتوافر على شفاه المشارقة على أنها جماع فلسفة الحيـاة ، ويرويهـا الغربيـون عنا عـلى أنها جماع الغفلة عن سر البقاء . هي قصة ذلك الاسكاف الذي أتاه رجل بنعل يخصفه . فنادى زوجه وسألها : « هل بقي لدينا شيء ؟ » فقالت : « لدينا ما يكفي اليوم وغـداً » فنظر الاسكـاف إلى الرجـل ، وقال له : « إذاً تأتيني بعد غد ». ثم استلقى على الأرض وأرسل بصره يتأمل جمال السماء ».

والدكتور بعد ذكر هذه القصة يقول على الفور :

« وتاريخنا الماضي كله صور متعددة الألوان لهذه القصة ».

إني لا أعرف مدى شيوع هذه القصة ، ولكني أقول بلا تردد بـأني لم أصادف مـا يمـاثلها حتى عنـد أخمل الخـاملين الذين شـاهدتهم طـول حياتي ، ولم أسمـع بمثلها عن أكسل الكسالى الذين يضرب بهم المثل في مختلف البلاد العربية ، ولا أشك في أنها من النكت التي قيلت للمبالغة في الكسل ، ولا أدري إذا كانت من مختلقـات الغربيـين أو الشرقيين .

ومهما كان الأمر ، فإني لا أسلم ، ولا أعتقـد أن أحداً يستـطيع أن يسلم ـ بـأن تاريخنا الماضي كله صور متعددة الألوان لهذه القصة كما يـدعي الدكتور حسين مؤنس .

فلنستعرض تاريخ العرب ، مبتـدئين من عهـود قبل الاسـلام ومتتبعين العهـود التي توالت بعد الاسلام :

هل كان أهل اليمن محرومين من الاحساس بفكرة الغد ، عندما بنوا سد مـأرب وعندما فتتوا الصخور ودرّجوا سفوح الجبال ، لجعلها قابلة للزراعة ؟

وهل كان الأنبـاط ـ أهل البتـراء ـ لا يفكرون بـالغد عنـدما نحتـوا المعابـد على

الجدران الصخرية في وادي موسى ؟

وهل كان الأمويون لا يفكرون بغير يومهم عندما مصّروا الأمصار ، وبنوا الكوفة ، وواسط ، والقيروان ؟

وهل كان العباسيون قد حصروا أنظارهم في حاجات اليوم ، دون أن يفكروا في المستقبل ، عندما بنوا القصور والجسور والحصون والقلاع . . . في مختلف أنحاء البلاد التي حكموها ؟

وهل الآبار والصهاريج المعدة على طول طريق الحج بين بغداد ودمشق وبين المدينة ومكة ، كانت من آثار قوم لا يعملون إلا ليومهم ، ولا يفكرون أبداً في غدهم ؟

وآثار الري القائمة في الأندلس إلى يومنا هذا ، هل يمكن أن تكون من صنع أيدي أناس لا يحسبون حساباً للغد ؟

وزياد بن أبي سفيان ، هل كان محروماً من غريزة التفكير في الغد ، عندما نقل إلى طبرستان خمسين ألفاً من أهل البصرة والكوفة ، وبنى هناك قلعة جهينة القائمة إلى الآن ؟

وأسد بن الفرات ، هل كان ممن يحصرون عملهم في اليوم دون أن يفكروا في الغد ، عندما أنشأ أسطولاً ، إستولى به على صقلية ، والجزر المحيطة بها ؟

إني لا أرى لزوماً إلى تطويل سلسلة هذه الأمثلة والأسئلة ، فأقول بلا تردد إستناداً إلى الأمثلة السابقة ـ : إن كل الآثار العربية المنبثة في البلاد الشاسعة التي حكمها العرب ، تشهد بأعلى صوتها ضد مزاعم الدكتور حسين مؤنس في هذا المضمار ، وتنفي قوله بأن تاريخنا الماضي كله صور متعددة الألوان « للاسكافي الكسلان » الذي روى لنا قصته الغريبة في مستهل بحثه هذا .

وقبل أن أختم هذا البحث وأنتقل إلى ما يليه ، أودّ أن أذكر لكاتب هذا المقال قصة اخرى، قصة تاريخية ، إتفق على صحتها جميع المؤرخين من غربيين وشرقيين :

عندما أتى جماعات من الغربيين واستولوا على سوريا خلال الحروب الصليبية ، دهشوا من آثار الحضارة التي شاهدوها فيها. ان المدن الشامية وأسواقها بهرت أنظارهم ، بتجارتها المزدهرة ، وصناعاتها الجميلة ، وحياتها الناشطة . وإتصال الأوروبيين بالشرق هناك كان من أهم عوامل النهضة التي قامت في أوروبا بعد مدة وجيزة .

هل يستطيع أن يقول الدكتور : إن كل هؤلاء التجار والصناع الذين بهروا أنظار الأوروبيين ، وأثاروا فيهم روح الاقتباس والتجديد ، كانوا على شاكلة الاسكاف الذي روى لنا قصته ، وزعم أنها تمثل نظرة الشرقي للمستقبل أصدق تمثيل ؟

وقد حاول الدكتور أن يبرهن على صحة قوله بذكر عدة وقائع تاريخية . ولكني لم أجد فيها ما يؤيد رأيه بوجه من الوجوه .

ولكي أجعل القاريء في موقف يستطيع أن يحكم في القضية ، بعد الاطلاع على جميع تفاصيلها ، أنقل فيما يلي كل ما كتبه الأستاذ في هذا المضمار :

وقد قال ـ عقب قوله : « وتاريخنا الماضي كله صور متعددة الألوان لهذه القصة » ـ ما يلي بحروفه الكاملة :

« قد تعودنا أن ننظر ليومنا فحسب ، وأن لا تترامى أبصارنا إلى ما وراء ما يبدو ماثلاً لأعيننا » .
« ولا يتغير موقف الشرقي من المستقبل مهما تهددته الأخطار . فقد تجد الدولة الاسلامية نفسها وجهاً لوجه أمام عدو لا يخفي مطامعه ، ويتحرك العدو للهجوم عليها ، ويدوس أطرافها ، فلا يعمد أهل الدولة إلى تدبير أمر الغد أو النظر في إنقاذ أنفسهم ، بل يكون همهم ما يشغلهم أيام السلم والرخاء . فقد كان المغول على أسابيع من بغداد . وكان رجال الدولة العباسية يعرفون تمام المعرفة أن هولاكو سائر إليهم ، وكتب إليهم الرجل نفسه يؤكد ذلك ، وأخذت جيوش التتر تقترب يوماً بعد يوم . فهل تحسب أن رجال الدولة فكروا في أن يعدوا للأمر عدته ، ويوحدوا كلمتهم ولو لبضعة أسابيع حتى يزول الخطر ! بالطبع لا . إنما إنصرفوا إلى التدبيرات والمشاحنات . ووجدها بعضهم فرصة ليثأر من أنداد له أساءوا إليه بالأمس ، وبلغ الأمر ببعضهم أن فرق معظم الجيش ، ولم يكن للخليفة همّ إلا أن يحافظ على أمواله .

« ثم سقطت بغداد ،واهلك التار أهل بغداد ، ولم يُبقوا على واحد من المتخاصمين . ونحن نقرأ هذه الاخبار ونعجب لأولئك الناس الذين شغلتهم تفاهات اليوم عن متاعب الغد ، ونعجب من أنهم كانوا يحسّون الكارثة القادمة ويعرفون أن مصيرهم كلهم إلى الهلاك فيها ، ومع هذا لم يصرفهم ذلك العلم عن الاسترسال فيما كان يشغلهم من قبل من بسائط وسخافات . ولكن لا محل للعجب . لأن أولئك الناس ، كانوا يعيشون في يومهم وحسب ، ولا ينبض في نفوسهم عرق المستقبل ، لأنه غير موجود . ومن ثم فقد سار بهم الزمن إلى الكارثة ، وهم لا يكادون يفعلون شيئاً .

« ومثل ذلك حدث عندما نزل الصليبيون الشام وأنشأوا لأنفسهم دولاً في بلاد المسلمين . وقسموا أنفسهم جماعات يجتاح كل منها ما يليه . أتظن أن أهل هذه البلاد تنبهوا إلى المصير الأسود الذي كانوا يسيرون إليه ؟ بالطبع لا . ظل أصحاب الموصل يكيدون لأصحاب دمشق . وأهل مصر يدبرون على أهل الشام ، بل يحالفون العدو عليهم . وعندما ظهر عماد الدين زنكي واجتهد في

توحيد صفوف المسلمين ، لم يكن لدمشق همّ إلا أن تناوئه وتدبر عليه وتحالف النصارى ، مما تجده معروضاً أحسن عرض في حياة « أسامة بن منقذ » . ولم يزل أمر المسلمين على ذلك والعدو يذلهم ويسقيهم الصاب ، حتى رزقنا الله بصلاح الدين ، فأرغمهم على الوحدة ، واستولى على بلاد المناوئين بحد السيف ، وما كانوا ينظرون إليه إلا على أنه عدو لهم ، مع أنه كان يسعى لما فيه صلاح أنفسهم .

« ومأساة الأندلس الكبرى ، مرجعها إلى إنعدام ذلك الإحساس . فقد كان من الجلي الواضح لكل إنسان في الأندلس أن النصارى لن يهدأ لهم بال ، إلا إذا إستولوا على بلاد المسلمين كلها ، وأزالوا دينهم ولغتهم . وكانت الأخبار تتوالى عليهم بسقوط المعاقل وذل المسلمين ، وهوان الاسلام ، وتحول المساجد الجامعة إلى كنائس . أتظن أن ذلك حفز أمراء الأندلس على السعي في الوحدة والنظر للغد ؟ بالطبع لا ، إنما كان همهم مكايدة بعضهم البعض : ابن عباد في اشبيلية يكيد لابن الأفطس في بطليوس . وذو النون في طليطلة يدبر لابن هود في سرقسطة . بل يستسيغ الواحد منهم أن يؤدي الجزية للنصارى ، ولا يستسيغ أن يأتلف مع جاره المسلم . وأخذت المعاقل تهوي واحداً في أثر آخر . فلم يتعظ الناجون ، بل سدروا في غيهم حتى ضاعت الأرض كلها . ولم يبق إلا جنوب شبه الجزيرة ، يشترك في الدفاع عنه بنو الأحمر وبنو مرين . فما زالوا يتخاصمون ويتدابرون حتى ابتلعهم الطوفان » .

هذه هي الوقائع التاريخية التي استشهد بها الدكتور حسين مؤنس ، للبرهنة على صدق نظريته .

ولكني ألاحظ على هذه الأقوال عدة أمور :

أولاً : أن الوقائع التي يستشهد بها كلها تعود إلى عهد إنحطاط الدول العربية وإنحلالها ؛ وما يحدث في مثل هذه العهود لا يجوز أن يعمم إلى جميع العهود ، ويعتبر من الأمور المركبة في طبيعة الأمة .

ثانياً : إن الوقائع التي يستعرضها صاحب النظرية تدل على تغلب نزعة الانانية والأقليمية وإنحلال فكرة الوحدة والاتحاد ، ولا تدل على فقدان نزعة التفكير بالغد .

ثالثاً : إن أمثال هذه الوقائع كثيرة في تواريخ الغربيين أيضاً .

فإذا إعتبرناها دليلاً على فقدان الإحساس بالغد عند العرب ، وجب علينا أن نقول أن هذه الحاسة مفقودة عند الغربيين أيضاً .

فلنلق نظرة عجلى على التاريخ العام ، ونستعرض أحوال الأمم المختلفة من هذه الوجهة : من اليونان في القرون القديمة إلى الألمان في العصور الحديثة . أفلا نجد فيها

كثيراً من الوقائع التي تماثل ما ذكرها واستشهد بها الدكتور حسين مؤنس ، عن تـاريخ العرب ؟

كـم قاست اليونان من المنافسات والمخاصمات التي قامت بين أثينا واسبارطة ؟ ألم يسجل التاريخ أن معظم اليونانيين كانوا يصفقون للمنتصرين ، عندما أخذوا يهـدمون أسوار أثينا ، ويقضون على سطوتها القضاء المبرم ؟

والرومان ، في أية حالة كانوا ، عندما أخذ البـرابرة يهـاجمون إمبـراطوريتهم من عدة جهات ؟ حتى عنـدما إجتـاز هؤلاء الجبال وأخـذوا يتغلغلون في سهول إيـطاليا ، ويزحفون نحو روما ؟

وإذا أردنا أمثلة من العهود المعـاصرة للوقـائع المـذكورة : ألم يتنـافس ويتخاصم الأوروبيـون أيضاً ، خـلال الحروب الصليبيـة ، في بلادهم الأصليـة من جهـة ، وفي البلاد التي كانوا استولـوا عليها من جهـة أخرى ؟ ألم يتحـالف بعضهم مع البعض من أمراء المسلمين ، ضد زملائهم وحلفائهم السابقين ؟

وإذا إنتقلنا إلى أزمنة أقرب منا ، أفلا نجد في تاريخ بولونيا أمثلة لا تقل فـظاعة عن كل الأمثلة التي ذكرها لنا الدكتور في تاريخ العرب ؟ ألا نعرف أن الدييت البولوني صـار مسرحـاً لأفظع المشـاحنات الحـزبية ، وإن هـذه المشاحنـات أدت إلى زوال دولة بولندا ، وإقتسام بلادها بين جيرانها الثلاثة ؟

وفي تاريخ أقرب من ذلك ، وفي أمـة أعظم وأشهـر من تلك ، في تاريـخ الأمة الألمانية نفسها ، ألم تحدث منافسات ومـدابرات أدت إلى إضعـاف الأمة وعـرضتها إلى شتى النكبات ؟ ماذا كـان سلوك أمراء الألمـان ، تجاه غـزوات نابـوليون ؟ ألم يتحـالف بعضهم مـع نابليـون ضد غيـره من أمراء الألمـان ؟ ألم يأخـذ عدد غـير قليـل منهم في السعي وراء إسترضـاء نابليون وتملقه ، ليحصل على إمارة من الأمارات الباقية ما وراء نهر الراين ، تعويضاً عن الإمارة التي خسرها ، من جراء تكوين إتحاد الراين ؟

وفي تـاريخ أقـرب من كل ذلـك : ماذا كـان وضع الـدول الألمانيـة ، في مؤتمر فرنكفورت الذي إنعقد بعد وقائع ١٨٤٨ وثوراتها ؟ هل كان ممثلوها أقـل إختلافـاً من الاختلافات التي حدثت في مجالس جامعة الدول العربية ؟

فكيف يجوز لنا ـ والحالة هذه ـ أن نعتبر الأمثلة التي ذكرها الـدكتور حسـين مؤنس دليلاً على حرمانِ العرب من غريزة الاحساس بالغد ، في الوقت الذي يـدعي أن هذه الغريزة مركبة في طبيعة الأوروبيين ؟

إن النظرية التي بناها الدكتور تنهار من نفسها ، من هذه الوجهة أيضاً .

ومما يلفت النظر أن الدكتور حسين مؤنس ، لم يكتف بالقول بأن غريزة الاحساس بالغد مفقودة في نفوس العرب والشرقيين ومتأصلة في نفوس الغربيين ، بل حاول أن يعلل ذلك ، ويبين الأسباب التي أدت إلى قيام هذا الفارق العظيم بيننا وبين الغربيين .

إنه يزعم أن السبب في ذلك هو إختلاف البيئة :

لقد نشأ الغربيون في بيئة « لا ينال الإنسان فيها رزقه إلا بعد كد وتعب » ، فالطبيعة هناك بخيلة بخيرها ، فالأرض صخرية عاتية لا تفلح إلا بعد جهد طويل . . فلا يستطيع أن يعيش في تلك البيئة « إلا الشديد الأيد المكافح المثابر الذي يعرف بالبديهة أن الحياة كفاح وتعب . فإذا لم يعول الإنسان على التعب والكفاح فلا حياة له ولا وجود . وقد عملت الطبيعة عملها في أجيالهم بانتظام : فأهلكت الضعفاء والمهملين والعاجزين ، ولم تبق إلا القوي الصالح للبقاء حقاً . وكل أوروبي نراه إنما هو بقية عشرة هلك تسعة منهم في الكفاح الطويل ، فهو واحد بعشرة ، ورث عن الهالكين تجاربهم وتركزت فيه ثمرات كفاحهم ، واستقرت في نفسه عبر مصارعهم ، ومن هنا نبض في قلب الغربي عرق الغد ، وعصب الاحساس به، وأصبح الواحد منهم يعيش بعيون مفتحة واسعة إلى الغد . وأصبح المستقبل في ذاته إحساساً غريزياً مركباً في طبعه .

« أما نحن فقد نشأنا في بيئات رخوة لينة ، تجود بخيرها بأقل مجهود . أو بيئات جافية قاحلة ليس فيها من الخير شيء تجود به ، وكلتا البيئتين لا تدفع الإنسان على التفكير في الغد أو الاحساس به . فأما صاحب البيئة الرخوة فهو في أمن من الغد ، مطمئن إلى أن الله يدبر له رزقه كما يدبر طلوع الشمس ؛ وأما الثاني فيائس من المستقبل والحاضر والزمان كله ، يعول في حياته على ما يصيبه في ساعته ، فإن وجد طعاماً أكل وإلا طوى نفسه على الجوع ، كما تفعل العظايا والضِباب في الصحراء ».

إن هذه النظرية التي يسردها الدكتور بأسلوب جذاب ، كأنه يروي لنا قصة واقعية ، قد تبدو وجيهة في الوهلة الأولى ، إلا أنها تنهار من أساسها ، عندما تتعرض إلى أدنى بحث ونقد ، لأن الأمور التي تستند إليها وتتكون منها ، لا تمت إلى الحقيقة والواقع بصلة من الصلات :

أولاً ، إن الأراضي التي عاش عليها ويعيش عليها الأوروبيون لم تكن كلها صخرية ، حتى ولا أكثرها .

ثم أن الدكتور ينسى وجود الغابات والمراعي الطبيعية في معظم أنحاء البلاد الأوروبية ، ومن المعلوم أنها سخية جداً ، بالمواد الغذائية . ومن المؤكد أن الغابات

كانت في الماضي أكثر سعة بكثير مما هي عليه الآن ، كما أنه من المؤكد أن أجداد الأوروبيين عاشوا بخيرات الغابات قبل أن يقدموا على فلاحة الأرض ، ويتغذوا بثمرات الزرع .

وفضلاً عن ذلك ، فإنه مما لا يستطيع أن يجادل فيه أحد أن الزراعة في البلاد التي تكثر فيها الأمطار أسهل بكثير منها في البلاد التي تحتاج إلى إرواء وإسقاء .

ثم إن المعيشة في البواد ي، برعي الأغنام والمواشي ،والتنقل بها من محل إلى محل بحثاً عن الكلأ ، تبعاً لمواسم الأمطار . . . لا تتم بدون كد ولا تعب ، كما يتوهمه صاحب ا لنظرية .

وفي الأخير ، يجب أن لا ننسى هذه الحقيقة التاريخية أيضاً : إن الزراعة نشأت في بلادنا ، قبل أن تنشأ في أوروبا ، كما أن الحضارة ـ بوجه عام ـ إزدهرت في بلادنا ـ قبل أن تزدهر في البلاد الأوروبية .

إذ من المعلوم أن أقدم الحضارات المعروفة نشأت في وادي الرافدين ووادي النيل ، والحضارة في الواديين المذكورين ، ربما لم تسبق كثيراً الحضارات التي نشأت في دلتا الأنهر الكبيرة في الهند والصين ، ولكنه من المؤكد أنها سبقت بعصور طويلة جداً ، الحضارات التي نشأت في البلاد الأوروبية .

والأبحاث الاجتماعية ، تعلل هذه الواقعة التاريخية ، بالأمور التالية :

إن الأقوام التي تضمن معاشها باقتطاف البذور والأثمار ، أو بصيد الحيوانات ، أو بالزراعة البسيطة التي لا تتطلب عملاً غير نبش التراب وبذر البذور ، إن هذه الأقوام تعيش في حالة جماعات صغيرة ، ولا تحتاج إلى تكتل كبير .

ولكن الأقوام التي تضمن معاشها في دلتا الأنهر في البلاد التي تقل فيها الأمطار ، فتحتاج الزراعة إلى أعمال الري والاسقاء ، لا يمكن أن تعيش في حالة جماعات صغيرة ، لأن الزراعة والمعيشة في أمثال هذه البيئات ، تتطلب بناء السدود لدرء أضرار فيضانات الأنهر ، وشق الجداول والقنوات لايصال المياه إلى المزارع . وذلك لا يمكن أن يتم على يد عائلة واحدة ، أو على يد جماعات صغيرة ، تعمل بإنفراد ، بل يتطلب تضافر أيدي جماعات كثيرة ، توحد جهودها لأعمال يعود نفعها إلى الجميع . ولذلك تضطر إلى تكوين جماعات كبيرة . والجماعات الكبيرة تحتاج إلى هيئات تنسق أعمالها ، وتوجهها الوجهة التي تضمن وسائل العيش للجميع .

هذا ، هو السبب الأساسي في قيام الدول وازدهار الحضارات ، في وادي النيل ، ووادي الرافدين ، قبل سائر أنحاء العالم ، في أوروبا وآسيا وأفريقيا .

ويلاحظ أن كل ذلك يخالف ما ذهب إليه الدكتور حسين مؤنس ، كل المخالفة .

- ٥ -

وقد كتب الدكتور حسين مؤنس عن حرمان العرب من الاحساس بالغد في مقالة أخرى ، نشرها في الثقافة أيضاً تحت عنوان « شرق وغرب » وذكر فيها دليلاً آخر على هذا الحرمان ، حيث قال :

« وانه ليس مجرد مصادفة إنك تجد الزمان في نحو اللغات السامية ينقسم إلى ماض ومضارع فحسب . أما المستقبل فمضارع تضيف إليه السين أو سوف ، وهما في إحساس الشرقي يوحيان إلى النفس معنى التشكك وعدم اليقين » .

ولكني لا أدري لماذا يوحي المستقبل معنى التشكك وعدم اليقين ، عندما يعبر عنه بالصيغة العربية ولا يوحي ذلك عندما يعبر عنه بالصيغة الفرنسية مثلاً ؟ وما الفرق - من حيث الدلالة المعنوية - بين قولي « سيكتب » - باللغة العربية ، وبين قولي « ايل اكريرا » باللغة الفرنسية ؟

المستقبل في اللغة العربية ، هو مضارع تضيف إليه السين ؟ وماذا يعني ذلك : أما أستطيع أن أقول : المستقبل في اللغة الفرنسية ، هو مضارع تلحق به الـ « را »؟

فلنقارن بين الصيغة العربية والصيغة الفرنسية في كلمتين :

يكتب	.....	سَ - يكتب
ايل اكري	.....	ايل اكري - را
يَقول	.....	سَ - يقول
ايل دي	.....	ايل دي - را

ألا تجد في كلتا الحالتين ، أننا نضيف مقطعاً جديداً على المضارع : « سَ » في العربية ، و « را » في الفرنسية ؟

والفرق بين اللغتين - في هذا الأمر - لا يخرج عن « أن المقطع الدال على المستقبل يضاف إلى أول الكلمة في العربية ، وإلى آخرها في الافرنسية » .

وكيف يجوز لنا أن نستنتج من هذا الاختلاف البسيط حرمان العرب من الاحساس بالغد ؟

ما يقوله علماء الصرف والنحو ؟ ولكن ماذا يمنعنا عن الخروج على القول الذي

إتفق عليه القدماء ، وعن تدوين قواعد اللغة العربية بطريقة أخرى أكثر تمشياً مع حقائق الأمور ؟ أفلا نستطيع أن نقول : أن الفعل ماض ومضارع ومستقبل . والماضي على وزن فَعَلَ ، والمضارع على وزن يَفعَلُ والمستقبل على وزن سَيَفعل ؟

ولذلك أستطيع أن أقول ، بلا تردد : إن النظرية التي ذهب إليها الدكتور حسين مؤنس في هذا المضمار ، لا تقوم على أساس سليم ، من هذه الوجهة أيضاً .

إنني لم أقصد بانتقاداتي هذه تنزيه أمتنا العربية من النواقص والعيوب والعلل والأمراض ، لا في حالتها الحاضرة ، ولا في ماضيها القريب أو البعيد .

إنما أردت البرهنة على خلوها من العلل التي توهمها فيها الدكتور حسين مؤنس ، نتيجة تشخيص مغلوط ، عندما زعم أنها محرومة من غريزة الاحساس بالمستقبل ، ولا سيما عندما ذهب إلى أن هذه الحالة نتيجة « طبع وتكوين » .

أنا لا أنكر أبداً كثرة عللنا وأمراضنا الاجتماعية . ولا أقول قط بجواز تجاهلها أو بوجوب التستّر عليها . بل أقول ـ بعكس ذلك ـ بوجوب بحثها وإظهارها إلى العيان بكل اهتمام ، لأني أعرف أن تشخيص الداء ، هو أول ما يجب عمله للتوصل إلى الدواء وضمان الشفاء .

ولكني أعتقد أن هذا البحث يجب أن يجري وفق أساليب علمية سليمة ، لكي يضمن تشخيص العلة الحقيقية ، دون توجيه الفكر نحو علل وهمية .

لو كان الدكتور قد قال : « أننا لا ننظر إلى المستقبل البعيد » ، لما اعترضت عليه أبداً .

ولكني اعترضت عليه بشدة ، عندما رأيته يقول « إننا لا نفكر في الغد أبداً » .

وقسوت في الاعتراض عليه أكثر فأكثر ، عندما رأيته يزعم « بأن أجدادنا أيضاً ما كانوا يفكرون في المستقبل . . . . » لا سيما عندما رأيته يقول : إن هذه « مسألة طبع وتكوين » ، فلا سبيل إلى تغييرها ، مهما بذل من جهود .

لأني أعتقد أن « أخطر الأمراض وأعصاها على العلاج » هي التي تتضاعف بقنوط المريض والطبيب عن إمكان الشفاء .

حول ماضي العرب

- ١ -

لقد نشرت مجلة الثقافة ـ سنة ١٩٥١ ـ مقالة بقلم الدكتور حسين مؤنس ، تحت عنوان « العرب وماضيهم » .

تتضمن المقالة المذكورة عدة آراء ونظريات غريبة ، عن تاريخ العرب والاسلام ، ولعل أغربها ، هي القائلة بأن « تاريخ العرب تاريخ متقطع ، محروم من الترابط والانسجام » .

إني أنقل فيما يلي القسم المتعلق بهذه النظرية ، لكي اعطي فكرة تامة عما يعنيه كاتب المقالة بقوله هذا :

« إن التاريخ الإسلامي لا يكوِّن حبلاً متصلاً . وإننا إذ ندرسه لا نجد أنفسنا أمام عصور متوالية ، يرتبط سابقها بلاحقها بروابط طبيعية تطورية حقيقية . وانما نحن أمام عصور متوالية ، منفصل كل منها عن الآخر كل الانفصال . فالعصر الأموي يختلف من كل ناحية عن العصر الراشدي ، يختلف في نظام الحكم وهيئة المجتمع وتكوينه ، ومثله العليا واتجاه الحكم وأهدافه . وعندما ينتقل الأمر إلى العباسيين يقف ذلك كله ، ويبدأ عصر جديد من كل ناحية ايضاً . فالخليفة العباسي ليس هو الخليفة الأموي ، ونظم الحكم العباسية تختلف في روحها تماماً عن نظم الحكم الاموية . والمجتمع البغدادي غير المجتمع الأموي ، والمثل العليا للناس في العصر الاول ليست هي المثل العليا لهم في العصر الثاني . حتى الشعب اختلف في نوعه وتكوينه ، وهذه الاختلافات كلها لم تأت عن تطور طبيعي أو انتقال تاريخي تستطيع تعليله . وانما هي انتقالات فجائية حاسمة ، تضع حداً لكل ما مضى ، وتبدأ عهداً جديداً تماماً . ولو أنك اردت أن تدرس العصر العباسي دون أن تلّم بالعصر الأموي لاستطعت . لانك في الواقع أمام دولة جديدة أصلاً . وهذا الاتجاه التاريخي

الغريب ، هو الذي يجعل مهمة مؤرخ الإسلام اعسر من مهمة من يؤرخ للعصور الوسطى الاوروبية مثلاً . فهناك دول كثيرة متوالية ، وانظمة كثيرة ، يتجه كل منها اتجاهاً خاصاً . ولكن الاساس العام للحكم واحد ، وهو يتطور باستمرار تطوراً منتظماً له غاية واحدة . خذ عقود الاقطاع من القرن السادس الميلادي إلى الثاني عشر ، تجدها تتطور باستمرار في الصيغ والحدود ، ولكنها جميعاً واحدة في الروح والاتجاه والاغراض . خذ تاريخ دولة الكنيسة ، تجد نفسك أمام تطور طبيعي ، يبدأ من أساطير انشاء يوحنا بن سمعان المعروف بالرسول بطرس لكنيسة روما ، ويصل تدريجياً إلى دولة البابوية المنظمة القوية في عهد جريجوري السابع . وخذ نشأة المدن وتتبع تطورها تجد نفسك أمام تاريخ متصل منطقي ، وهكذا بينما تتعاقب الدول وتختلف الظواهر العامة وتجري تطورات اخرى داخلية تربط العصر بالعصر والناس بالناس ، وتجعل التاريخ الاوروبي أشبه بنهر متصل المجرى ، قد تختلف المناظر القائمة على شاطئيه ، وقد تعترضه الشلالات والجنادل ، ولكن الماء واحد ، واتجاهه واحد ، ومصبه كذلك واحد ، مهما اختلفت المنابع وموارد الماء .

« وربما كان مرد تلك الظاهرة التاريخية الغريبة إلى أن الدولة الاسلامية انتقلت اوائل العصر العباسي من شواطيء البحر الابيض إلى آسيا ، واصبحت دولة آسيوية الروح والطابع والاتجاه . والعقلية الآسيوية عقلية جامدة غير تطورية ، لا تعرف التدرج . والتغير فيها لا يتم إلا عن طريق الانقلاب أو الانفجار . وكل شيء تبدعه العقلية الآسيوية يبقى كما ظهر اول مرة . وإذا اردت مثالاً ملموساً لذلك ، فخذ اللغة العربية . فنحن نكتب اليوم بلغة امرىء القيس ، ونستعمل الالفاظ في نفس المعاني التي استعملها فيها ، مع أن بيننا وبينه ستة عشر قرناً . ولا يعزى هذا إلى اصرار الناس على المحافظة على لغة القرآن . فكل لغات آسيا على هذا الطراز ، والصينيون اليوم يكتبون لغة كونفوشيوس .

« ولو انك تتبعت تاريخ المسلمين لرأيت أن هذه الظاهرة تنطبق على كل عصر من عصوره ، ومن العبث أن تبحث عن الروابط والخطوط العامة التي تربط عصراً بسابقه أو بلاحقه ، لأن العصر في تاريخ المسلمين إذا انقضى امحت آثاره كلها وبدأ الناس حياتهم من جديد .

« ونحن اليوم حينما نحاول احياء تراث أجيال المسلمين السالفة انما نحاول أن نصطنع ظاهرة غير طبيعية ، ونحاول أن نصوغ تاريخنا صياغة اوروبية . فبينما يشعر الانجليزي المعاصر أنه متصل تمام الاتصال بالماجنا كارتا والهابياس كوربس ، نشعر نحن شعوراً صادقاً بأنه ليست هناك رابطة حقيقية تربطنا ببني أمية أو بني العباس .

« ومن هنا فمن الطبيعي أن يكون العرب أقل الناس تأثراً بماضيهم وارتباطاً به . لأن كل جيل من أجيالهم الماضية اختفى من التاريخ ، حاملاً معه كل تراثه تاركاً الميدان لجيل آخر يبدأ كل شيء من جديد » .

إن هذه النظرة إلى تاريخ العرب والاسلام تذكرني بالنظرية التي وضعها بوفون عن تكوين الأرض ، في اوائل عهد علم الجيولوجيا : لقد زعم أن الأرض وما عليها من جبال وانهار ونباتات وحيوانات تعرضت إلى انقلابات فجائية حاسمة في عدة ادوار من تاريخها الطويل ، وأنه في كل دور من ادوار هذه الانقلابات الفجائية كانت تنقرض مخلوقات الدور السابق وتظهر مخلوقات من انواع جديدة ، وأوضاع أرضية وأحوال مناخية جديدة ، تختلف عن السابقة كل الاختلاف . لأنه كان لاحظ الفروق العظيمة التي تدل عليها اوضاع الطبقات الأرضية وأنواع المستحاثات النباتية والحيوانية ، ولكنه لم يستطع أن يتصور أن امثال هذه الفروق العظيمة يمكن أن تنشأ من تحولات تدريجية . وعاشت نظريته هذه إلى أن قامت أبحاث شارل لا بل الجيولوجية الخاصة من ناحية ، ونظريات داروين العلمية العامة من ناحية اخرى ، وبرهنت على أن كل هذه التحولات الجيولوجية انما حدثت بتطور تدريجي ، دون أن يزول عالم ويخلق عالم جديد .

إذا سلمنا برأي الدكتور حسين مؤنس في هذا المضمار وجب علينا أن نقول : إن الأحوال سارت في التاريخ العربي والاسلامي على اساس الانقلابات الفجائية الكاملة ـ وفقاً للنظرية الجيولوجية القديمة ، واما في التاريخ الأوروبي فقد سارت الامور ـ وفقاً للنظرية الجيولوجية الحالية !

ويلوح لي أن مرد الخطأ الذي وقع فيه الدكتور في هذا الأمر ، هو خلطه بين التاريخ نفسه وبين كتب التاريخ التي تبحث فيه :

إنه يدرس التاريخ الغربي ـ كما ندرسه كلنا ـ من كتب لخصت أبحاث وجهود عدة أجيال من المؤرخين . وهؤلاء ، درسوا الوقائع التاريخية ووثائقها بتعمق وتوسع وتأمل ، واستقرأوا الجزئيات ليتوصلوا إلى الكليات ، بحثوا في المقدمات والنتائج ، وتتبعوا سير التيارات السطحية والجوفية ، واستكشفوا العوامل القريبة والبعيدة . ودونوا في مؤلفاتهم نتائج هذه الابحاث والتنقيبات ، والاستقراءات والاستنتاجات ، والتأملات . إنهم عملوا كل ذلك وفقاً لخطط عملية وبنظرات فلسفية واجتماعية .

ولذلك عندما نقرأ تلك المؤلفات ، نطلع على الروابط والاتجاهات والتطورات ، دون أن نحتاج إلى بحثها واكتشافها بانفسنا .

ولكن الدكتور درس التاريخ العربي والاسلامي كما ندرسه كلنا ، من مؤلفات قديمة سجلت الوقائع تسجيلاً ، كما تراءت للمؤلف ، ـ إما عن طريق المشاهدة واما عن طريق السماع ـ دون أن يهتم كثيراً بالمقدمات والنتائج ، ودون أن تتتبع التيارات

السطحية فضلاً عن الجوفية العميقة . ولذلك تراءت له الوقائع متقطعة ، غير متسلسلة - مثل ما كانت الطبقات الارضية تراءت إلى بوفون - وعوضاً عن أن يتأمل الامور بنظرات مستنيرة بمناحي الابحاث التاريخية والاجتماعية والفلسفية ، راح يدعي أن التاريخ الاسلامي والعربي يختلف عن التاريخ الغربي في جوهره فإن وقائع التاريخ الاول تتكون من سلسلة انقلابات فجائية ، لا رابطة تربط جديدها بقديمها ، خلافاً لوقائع التاريخ الغربي ، وخلافاً لنظرية التطور العام !

يقول الدكتور : « ولو انك اردت أن تدرس العصر العباسي دون أن تلم بالعصر الاموي لاستطعت » . وأنا ارجوه أن يفعل ذلك ، ويقول لنا : كيف يستطيع أن يفهم شيئاً عن العصر العباسي ، عندما يطوي من ذاكرته ما عرفه عن العصر الاموي ؟

كيف يستطيع الباحث أن يفهم سير الامور في العصر الذي يسمى العباسي ، إذا لم يعرف أن العرب كانوا في الحيرة تابعين للدولة الساسانية ، ثم اتوا من الجزيرة وقضوا على الدولة المذكورة واستولوا على جميع بلادها ؟ وأن الفرس اعتنقوا الدين الاسلامي بعد الفتح العربي ، ولكن بعضهم اعتنق الاسلام ظاهراً ، ليحاربه من الداخل . وبعضهم اعتنق الاسلام ، ولكنه بقي متحزباً لقوميته السابقة - وصار يعمل لمصلحتها ؟

وكيف يستطيع أن يطلع على حقيقة التيارات التاريخية والاجتماعية في العصر العباسي ، إذا لم يطلع على التيارات التي سبقتها ؟

وكيف يستطيع أن يلمّ بالمقدمات والنتائج ، إذا لم يعرف مثلاً ، أن الفتوحات العربية شملت ما وراء النهر وتركستان ، وأن الخلفاء صاروا ينقلون العائلات العربية إلى تلك البلاد ليرسخوا جذور حكمهم فيها ، كما صاروا يأتون بأناس من هناك ليستفيدوا من خدماتهم بأساليب شتى ؟

إني أعتقد أن معلوماتنا عن العصر العباسي وعن بغداد ، مثلاً ، تبقى ناقصة مبتورة ، بل تتعرض إلى اخطاء كثيرة ، إذا لم تتنور وتقترن بمعلومات عن تخطيط الكوفة ، وانشاء واسط ، وواقعة كربلاء ، وولاية الحجاج . . . وما شاكل ذلك من الامور التي تعود إلى العهد الأموي .

ولا اغالي إذا قلت ، ما من تيار من التيارات التي ظهرت في العصر العباسي الاول - وما من عمل من الاعمال التي تمت خلال ذلك العصر - الا وكان له جذور ومنابع ومقدمات كثيرة في العصر الاموي .

يقول الدكتور أن الخليفة العباسي غير الخليفة الاموي . . . ولكني أسأله : هل

يستطيع أن يصف لي الخلفاء العباسيين ، بوصف يشمل جميعهم ؟ هل الخليفة الذي قضى على نفوذ البرامكة يشبه الخليفة الذي استسلم إلى دسائس العلقمي ؟ هل يشبه أحد من خلفاء العصر العباسي الاول احداً من خلفاء العصر العباسي الاخير ؟ أفأكون مغالياً إذا قلت أن الخليفة العباسي الاول كان اشبه بخلفاء بني أمية منه بالخليفة العباسي العاشر ، ولا سيما بالحادي والعشرين ؟

ـ ٣ ـ

يحاول الدكتور تعليل الحالة التي ذهب اليها ، بقوله : « ربما كان مرد تلك الظاهرة التاريخية الغريبة إلى أن الدولة الاسلامية انتقلت اوائل العصر العباسي من شواطيء البحر الابيض إلى آسيا ، واصبحت دولة آسيوية الروح والطابع والاتجاه ، والعقلية الآسيوية عقلية جامدة ، غير تطورية لا تعرف التدرج » .

إني أعتقد أن كل ما جاء في هذه الفقرة يحتاج إلى بحث ونظر . هل أن مجرد انتقال الحكم من اسرة إلى اسرة أخرى ، والعاصمة من مدينة إلى اخرى ، ينقل كل الامور من حال إلى حال ، تختلف عنه كل الاختلاف ؟ وانتقال عاصمة الدولة الاسلامية من دمشق إلى بغداد ، هل يعني انتقال الشعب كله ، والحضارة كلها ؟ هل تخلت الدولة العباسية عن سوريا ومصر ؟ وعن افريقيا والمغرب ؟ نعم ، استقلت الاندلس عن الدولة العباسية ، ولكن هل خرجت بذلك عن حظيرة العروبة ، أو حوزة الاسلام ؟ افلا يجب علينا أن نتخلى عن عادة اعتبار الملوك بمثابة الكل في الكل واهمال الامور الشعبية والاجتماعية كل الاهمال ؟

ثم ، بأي شيء يستطيع أن يبرهن الدكتور على أن العقلية الآسيوية عقلية جامدة ، غير تطورية ، لا تعرف التدرج ؟ ثم ، هل توجد هناك عقلية تشمل كل الشعوب الآسيوية ، وتستحق التسمية باسم العقلية الآسيوية ؟

يقول الدكتور أن الصين ، لا تزال تتمسك بلغة كونفوشيوس ، ولكن تلك اللغة ، هل خرجت من العدم ، دون تطور وتدرج ، كما خرجت منيرفا بغتة إلى الوجود ، حسب رواية الأساطير اليونانية ؟ أفيمكن أن نشك في أن ذلك كان نتيجة تطورات طويلة . . . إذا جهلناها اليوم ، لا بد من أن نكتشفها ونعرفها غداً ؟

يقول الاستاذ : أن كل شيء تبدعه العقلية الآسيوية ، يبقى كما ظهر لأول مرة . ولكني اسأله : كيف يظهر لأول مرة ؟ هل يظهر من لا شيء ؟

صحيح أن حضارة الصين ، بقيت جامدة قروناً عديدة . ولكن ألم تكن راقية ومتقدمة ـ بالنسبة إلى زمانها ـ قبل جمودها ؟ هل وجدت من العدم ، أم ولدت راقية

منذ بدايتها ؟ أفليس من المؤكد أن الصين لم تصل إلى تلك الدرجة من الحضارة جملة واحدة ، بل وصلت اليها بتطور تدريجي ؟

صحيح ، أن حضارة الهند ، انقطعت عن النمو منذ عدة قرون . ولكن ألم تكن أرقى بكثير من الحضارة الغربية ـ في زمانها ـ من وجوه عديدة ؟ أفليس من المؤكد أنها كانت وليدة تطور سابق ؟

ثم أوروبا ، التي صارت منذ عدة قرون مثالاً للتقدم السريع ، والتطور المهول ، ألم تعرف عهد خمول وجمود ، استمر عدة قرون ؟

إني من الذين يعتقدون أن تعليل الوقائع التاريخية بخصائص القارات ، لهو من التعليلات البدائية ، السطحية التي لجأ اليها بعض المفكرين ، في اوائل عهد فلسفة التاريخ ، كما كان يعلل فلاسفة القرون الوسطى الحوادث الطبيعية ، بقولهم أنها من خصائص هذه المادة أو تلك ، دون أن يتعبوا أنفسهم بدرس الحوادث نفسها ، واستكشاف عواملها .

إن كل ما اعرفه عن نتائج الأبحاث التاريخية والاجتماعية ، والتأملات الفلسفية يدفعني إلى القول بأن التجدد أو الجمود ، التطور السريع أو البطيء ، التغير التدريجي أو الفجائي . . . لم يكن من خصائص أمة من الأمم ولا قارة من القارات ، انما كل ذلك من الحالات التي تعتري بعض الأمم ، في بعض الأطوار من حياتها ، على اختلاف الاصول التي تنحدر منها ، وعلى اختلاف القارات التي تنتسب اليها .

إن كثيراً من الأمم الآسيوية مرت بأدوار تجدد ؛ وبعكس ذلك فإن كثيراً من الأمم الأوروبية استسلمت إلى كرى الجمود ، في دور من أدوار تاريخها المعلوم .

لا الجمود كان من خصائص القارة الآسيوية ، ولا التجدد كان من خصال البلاد الاوروبية ، في مختلف عهود التاريخ .

ـ ٤ ـ

يقول الدكتور في صدد الكلام عن فقدان الارتباط بين الاجيال السابقة واللاحقة في تاريخ العرب والاسلام :

« بينما يشعر الانجليزي المعاصر أنه متصل تمام الاتصال بالماجنا كارتا والهيبياس كوربس ، نشعر نحن شعوراً صادقاً بأنه ليست هناك رابطة حقيقية تربطنا إلى بني أمية أو بني العباس » .

إني لا اشارك الدكتور في هذا الرأي . ولكني لا أرى لزوماً لمناقشته طويلاً ، بل أرجح أن أنقل فيما يلي ما كتبه هو نفسه ، بمناسبة أخرى في مجلة الثقافة نفسها ، في

مقالة تحمل عنوان « شرق وغرب » وتحاول البرهنة على أننا لا نستطيع أن نتخلص من الروح الشرقية :

« إن عرق الشرق ينبض في نفوسنا ويردنا إلى أصلنا على الرغم من محاولاتنا : فالمدرسة المصرية الحديثة على رغم ما بذل من جهود في سبيل النهوض بها تكشف آخر الأمر عن الكتاب القديم في روحها وطريقة التعليم فيها . وإدارات الدولة الحديثة ليست آخر الأمر الا دواوين الشرق القديمة . وانك لتشعر إذا أقبلت على مكتب مدير مصري ، كأنك في دار الوزير العباسي علي بن عيسى الذي كان ينقل أوراق الدولة وملفاتها إلى بيته ويكدسها في غرفته ، ويجلس بينها وبين يديه كاتبه أو كتابه ، ويدخل الناس جماعات جماعات ، يتحدثون اليه ويساعدونه ، وهو يملي ويوقع ويقرر ويصادر أموال الناس ، أو يمنح أصدقاءه ومادحيه آلاف الدراهم أو الدنانير . لا زال المدير المصري الحديث هو الكاتب العباسي القديم ، رغم المكتب الحديث وآلة التليفون والبذلة الأوروبية والرطانة الافرنجية » .

إني لا أقر صاحب المقالة على جميع ما جاء في هذه الفقرات ، ولكني نقلتها لاظهر التناقض الصريح الموجود بينها وبين ما جاء في المقالة التي نحن بصددها : هناك يقول : « ليست هناك رابطة حقيقية تربطنا إلى بني أمية أو إلى بني العباس » ، وهنا يزعم « أن الوزير المصري لا يختلف عن الوزير العباسي ، والمدير المصري يشبه الكاتب العباسي . . » .

إن التناقض لا ينحصر بين هذه الفقرة وتلك ، بل يظهر للعيان بينها وبين مجموع النظرية التي أوردها في مقالة « مستقبل العرب » .

المقالة تحاول أن تبرهن على أن التاريخ الاسلامي يتألف من عصور متوالية ، « منفصل كل منها عن الآخر كل الانفصال . . . وأن العصر في تاريخ المسلمين إذا انقضى انمحت آثاره كلها . . » وأما الفقرة المذكورة فإنها تفيد أن أحوال الدولة العباسية لا تزال مستمرة في مصر إلى الآن .

إن هذه الآراء المتناقضة صادرة من قلم واحد ، ومنشورة في مجلة واحدة . والمدة التي مضت بين نشر الاولى ونشر الثانية عبارة عن شهرين .

أفلا يحق لي أن أقول ـ والحالة هذه ـ أن الأبحاث التاريخية لا يجوز أن ترتجل كما ترتجل المقالات الصحفية ؟

حول مقال العرب في سويسرا

- ١ -

نشرت جريدة الاهرام - قبل نحو ثلاث سنوات ، في عددها الصادر ١٩٥٢/٦/٧ - فقرة تحت عنوان « العرب في سويسرا » ، بتوقيع الدكتور عبد العزيز سامي .

فقد جاء في هذا المقال ما يلي :

« زرت مدينة سان موريتز الجميلة ، والتقيت بأحد السويسريين ، ثم تبادلنا الحديث عن الأماكن التي يستحسن زيارتها في هذه المنطقة . فلفت نظري وجود مكان يدعى Al Fourn باللهجة المحلية ، وبه ممر يدعى Ofen Pass بالألمانية أي « ممر الفرن » ويلاحظ القارىء الشبه الشديد بين كلمتي « الفرن » و Al Fourn ولكني ظننت أنه محض مصادفة . إلى أن قرأت ما يأتي في دليل محلي عن هذه الجهة من البلاد :

« في القرن العاشر الميلادي دخل العرب Sarracens منطقة الانجادين (التي بها سانت موريتز) متحالفين مع أميرها « هوجو فون بروفنز » ضد خصمه الملك « برنجار » الذي فر إلى جنوب ألمانيا . وانشأ العرب بها مستعمرة « العين » Aleien وتسمى حالياً Acua . وقد بنوا برجاً في بونتريسينا لا يزال قائماً إلى الآن . « واسم بونتريسينا نفسه محرف عن Pont Saracena أي « قنطرة العرب » ، إذ أنهم كانوا أنشأوا قنطرة بها على النهر . غير أن احتلال العرب لهذا الوادي لم يطل ، إذ انسحبوا من جنوب فرنسا وما يجاورها واقتصرت دولتهم على الاندلس كما هو معروف . وقد لاحظت وجود كلمات في اللغة المحلية لا بد أن تكون عربية الأصل . فالمحبوب يسمى Il Marus والمحبوبة La Marusa . واكبر الظن أن الكلمتين أصلهما « المحروس » و « المحروسة » ، ووجه الشبه لا يحتاج إلى بيان » .

- ٢ -

وبعد بضعة أيام نشرت جريدة الأهرام نفسها تعليقاً على هذه الملاحظات الثمينة ، تحت عنوان « المسلمون في سويسرة » ، بتوقيع محمد عبد الله عنان .

قال المحرر في هذا التعليق ما يلي :

« قرأت في أهرام يوم السبت كلمة لحضرة الدكتور عبد العزيز سامي تحت عنوان « العرب في سويسرا » أشار فيها إلى ما لمسه اثناء زيارته لمدينة سان موريتس من وجود كلمات ترجع إلى اصول عربية ، وما قرأه في دليل هذه المنطقة من أن العرب غزوا ولاية آنجادين بسويسرا في القرن العاشر الميلادي .

وغزوات المسلمين (ليس العرب) لجنوبي فرنسا وشمالي ايطاليا ومناطق الألب السويسرية مشهورة في التاريخ . ولكنها لم تكن منذ القرن التاسع غزوات حكومات نظامية . بل كانت غزوات جماعات مغامرة مستعمرة من المسلمين ، معظمهم من أهل الاندلس والجزائر الشرقية وشمالي افريقيا . وقد غزا اولئك المستعمرون خلال القرن التاسع الميلادي جنوبي غاليس (فرنسا) ولا سيما بروفانس ، ثم نفذوا إلى سافوا وبيمون ، وغزوا بعدها سويسرا في اوائل القرن العاشر ، وبدأوا بمنطقة فاليش (فاليه) ثم غزوا ولاية جريزون ، وشواطىء بحيرة جنيف ومفاوز جورا ووصلوا في توغلهم في سويسرا إلى مدينة سالي جالن وشواطىء بحيرة كونستانس، وانشأوا في هذه الانحاء كثيراً من المستعمرات والمعاقل ، ولبثوا في كثير منها حتى اواخر القرن العاشر ، حيث اخرجوا تباعاً وقضي على مستعمراتهم ، ولكنهم تركوا وراءهم كثيراً من الآثار المادية والادبية .

وقد فصلت قصة هذه الغزوات الاسلامية في كتابي « دولة الاسلام في الاندلس) القسم الثاني ص ١١٨ - ١٣٤) . وقد تناولها كثير من الكتاب الغربيين بالتفصيل والتعليق .

وأود بهذه المناسبة أن اشير إلى أنه من التجاوز أن يذكر اسم العرب بمناسبة هذه الغزوات أو غيرها . إذ كانت الصفة العربية قد غاضت منذ بعيد عن الفتوحات الاسلامية » .

- ٣ -

إن تعليقات الاستاذ محمد عبد الله عنان هذه ، استوقفت نظري بشدة ، واثارت في نفسي عدة ملاحظات مريرة :

إنه يغير عنوان البحث ، ويجعله « المسلمون في سويسرا » عوضاً عن « العرب في سويسرا » . وفضلاً عن ذلك يصرح أن الغزوات المذكورة قام بها « المسلمون لا العرب » ، وفي الاخير ، يؤكد على ذلك بقوله : « من التجاوز أن يذكر اسم العرب بمناسبة هذه الغزوات او غيرها . إذ كانت صفة العروبة قد غاضت منذ بعيد عن الفتوحات الاسلامية » .

إذن أنه يزعم بأن الذين قاموا بتلك الغزوات ، في جنوب فرنسا وفي سويسرا ، ما وراء البيرنس وعلى جبال الالب لم يكونوا من العرب ، بل كانوا من المسلمين . ولكن هؤلاء المسلمين ، اما كانوا من العرب ؟ هل كانوا من الفرس أو من الاتراك أو من المغول ؟ إنهم كانوا من اهل الاندلس ؛ ولكن الاندلس ، اما كانت عربية ؟

إن الاستاذ عبد الله عنان لا يرضى حتى بذكر اسم العرب بمناسبة هذه الغزوات ، لأنه يزعم بأن صفة العروبة قد غاضت منذ بعيد عن الفتوحات الاسلامية . ولكني أنا لا ادري كيف ومتى غاضت صفة العروبة من الاندلس ؟

نعم ، ان بعض الفتوحات الاسلامية لم تتم على يد العرب . فإن الاتراك السلاجقة ـ بعد أن دخلوا في حوزة الاسلام ـ فتحوا الاناضول . والاتراك العثمانيون فتحوا بلاد البلقان ، والمغول بعد الاسلام تغلغلوا في الهند ـ ولكن الاندلس ، وما وراء الاندلس ، من فتحها ، ومن غزاها ، ومن استوطنها ، ومن مدّنها ؟

ربما قال الاستاذ ، كان بينهم عدد غير قليل من البربر ، ولكن هؤلاء البربر ، اما كانوا قد استعربوا خلال تلك القرون في تلك البلاد ؟

ثم : اي جيش من الجيوش الفاتحة ، التي يعرفها التاريخ ، تكونت من عنصر واحد ؟

فلنلق نظرة واحدة إلى تاريخ الرومان ، الذين كانوا اعظم الفاتحين في التاريخ القديم : جيشهم كان يتألف من اهالي مختلف البلاد المفتوحة ، من غاليا واسبانيا إلى ليبيا وسوريا . واما اهل روما ، فما كانوا بين هؤلاء إلا اقلية ضئيلة . حتى مقام الامبراطورية نفسه ، لم يبق محصوراً بالرومان الاصليين . فالتاريخ يذكر لنا عدداً غير قليل من الاباطرة الذين لم يكونوا من اصل روماني : فإن انطونين ـ مثلاً ـ كان من اهل غاليا ، وماركوس اوره ليوس كان من أهل اسبانيا ، وسبتيموس سيفريوس كان من افريقيا . وزوجته المشهورة ـ جوليا دوننا ـ كانت من اهل حمص في سوريا ، وابنه كارا كاللا ، عندما صار امبراطوراً لعب دوراً هاماً في تاريخ الدولة ، إذ منح حق المواطنة لجميع سكان الامبراطورية . حتى . . . إن أحد الاباطرة حافظ على لقبه الاصلي ، إذ عرف باسم « فيليبوس آرابيكوس » ، (فيليب العربي) وكان من اهالي حوران . ومما يجدر ذكره ، أن المهرجانات التي اقيمت بمناسبة مرور الف عام على تأسيس روما ، جرت في عهد هذا الامبراطور الذي كان عربي الاصل ، وعربي اللقب !

ومع كل ذلك ، هل قال احد المؤرخين عن تلك الامبراطورية ، انها لم تكن « رومانية » ؟

أفليس من الغريب أن يقوم ـ مع ذلك ـ كاتب عربي ، اشتهر بمؤلفاته التاريخية ، ويقول : لا يجوز ذكر اسم العرب ، بمناسبة الغزوات المبحوث عنها ؟

- ٤ -

إن فداحة الاثم الفكري الذي تنطوي عليه كلمة الاستاذ عبد الله عنان ، تظهر بوضوح أتم ، عندما نرجع إلى صحائف التاريخ ، ونحدد الازمنة التي حدثت خلالها الوقائع المبحوث عنها .

إن تغلغل العرب في جبال الألب وتسيطرهم على المجازات السويسرية الموصلة إلى ايطاليا ، قد حدث بطبيعة الحال بعد استيلائهم على سبتيمانيا ـ في جنوب فرنسا ـ وتحصنهم في الجبال المشرفة على سهول البروفانس . وكان ذلك في أواخر القرن التاسع وأواسط القرن العاشر للميلاد . أي : النصف الاخير من القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع للهجرة . وذلك يعني : في العهد الاموي الزاهر في الاندلس ، وزمان خلافة عبد الرحمن الناصر في قرطبة !

هذا هو العهد الذي يزعم الاستاذ عبد الله عنان بأنه لا يجوز ذكر اسم العرب بمناسبة الغزوات التي تمت خلاله !

من المفيد أن نذكر هنا واقعتين من الوقائع التي سجلها المؤرخون عن عهد الناصر ؛ تعود احداهما إلى اوائل ذلك العهد ، والثانية إلى اواخره :

سنة ٩٢٠ م (٣٠٨ هـ) بعث الخليفة عبد الرحمن الناصر عمه عبد الملك ـ الذي لقب بعد ذلك بـ « المظفر » ـ لغزو بلاد الفرنجة . فاجتاز عبد الملك بجيوشه جبال البرانس ، واكتسح جانباً عظيماً من غشقونيا ، ووصل إلى أبواب طلوزا (مدينة تولوز الحالية في فرنسا) .

سنة ٩٥٦ م (٣٤٥ هـ) ـ أوفد الامبراطور اوطون الكبير سفيراً إلى عبد الرحمن الناصر في قرطبة . والغرض الأساسي من هذه السفارة ، كان التشكي من أعمال العرب المسيطرين على مجازات الألب وطلب توسط الخليفة لوضع حد لتعدياتهم ، لأن القوم كانوا يعتبرون المستعمرات العربية القائمة في تلك النواحي تحت حماية الخليفة .

فليس من الغـريب أن يقـول الاستـاذ عبـد الله عنـان « لا يجـوز ذكـرٍ اسم العـرب . . . » عـلى الـرغم من وجـود أمثـال هـذه النصـوص التـاريخيـة فضـلاً عن الملاحظات العامة التي سردتها آنفاً[1] ؟

---

(١) يشـير الاستاذ عبـد الله عنان ـ بهـذه المناسبـة ـ إلى احد كتبـه ، فيقـول : وقـد فصلت قصـة هـذه الغزوات الاسلامية في كتابي : **دولة الاسلام في الانـدلس** (القاهـرة : مطبعـة لجنة التـأليف والترجمـة والنشر ، ١٩٤٣ ـ ١٩٦٠) ، القسم ٢ ، ص ١١٨ ـ ١٣٤ .

ولكن ما كتبه الاستاذ في كتابه المذكور مختصر جداً : إنه يقع في ١٦ صفحة فقط . غير أنه يوجد في المكتبة العـربية كتـاب مفصل في هـذا الموضـوع . كتاب الامـير شكيب ارسلان ، **تـاريخ غـزوات العـرب في فـرنسـا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط** (القاهرة : البابي ، [١٣٥٢ هـ]) .

لقد لخص المؤلف في هذا الكتاب ما نشره عن هذه الغزوات باحث افرنسي وآخر الماني .

والكتاب مسهب ، فنوصي كل من يود الاطلاع على تفاصيل تلك الغزوات بمراجعته .

العالم العربي والشرق الاوسط

- ١ -

لقد اعتاد الأوروبيون والامريكيون أن ينظروا إلى بلادنا والبلاد المجاورة لنا من زاويتهم الخاصة وبمنظارهم الخاص ، من خلال مصالحهم الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، ولذلك حددوا على خارطة الأرض ، حول ملتقى قارتي آسيا ، وافريقيا ، منطقة أسموها باسم « الشرق الأوسط » ، وصاروا يولونها اهتماماً خاصاً فيجعلونها موضوع دراسات وأبحاث ، واذاعات خاصة .

ولهذا السبب ، صرنا نقرأ - في مختلف اللغات - مجموعة كبيرة من الكتب والمجلات التي تحمل اسم هذه المنطقة ، وصرنا نشاهد كثيراً من الخرائط التي تصور « الشرق الاوسط » ، ونسمع كثيراً من الاخبار عن الاجتماعات التي يعقدها - من وقت إلى آخر - ممثلو هذه الدولة أو تلك في « الشرق الاوسط » ، وعن معاهد الابحاث التي تتولى دراسة شؤون الشرق الأوسط ، وعن المؤتمرات الدورية والمنظمات الدائمة التي تسعى إلى تنسيق العلاقات بين دول الشرق الاوسط . كما صرنا نقرأ كثيراً من الأخبار عن المشاريع التي توضع والمقررات التي تتخذ بقصد الدفاع عن هذه المنطقة من العالم .

وصار الكثيرون منا يتأثرون من هذه الاخبار والكتابات الكثيرة ، فيشاركون الغربيين في هذه النظرات الخاصة ، ظناً منهم بأنها « نظرات علمية » ، تستند إلى حقائق جغرافية ، غافلين عن العوامل السياسية التي رَسمت وعينت حدود هذه المنطقة وفق ما تقتضيه مصالح الدول العظمى .

ولذلك ، صارت تظهر في المكتبة العربية ايضاً طائفة من الكتب والمقالات

والخرائط التي تحمل اسم الشرق الاوسط ، وتلفت الانظار إلى شؤون هذه المنطقة .

- ٢ -

ومما يجب أن يلاحظ في هذا المضمار ، أن خارطة المنطقة التي تسمى الشرق الاوسط ، تشطر العالم العربي إلى شطرين : تترك الشطر الغربي منه جانباً ، فتهمله اهمالاً كلياً ، واما الشطر الشرقي منه فتدخله داخل نطاقها ، الاّ أنها تحشره مع طائفة من البلاد « غير العربية » وتطمس بذلك معالم العربي ، وتخفي عن الانظار شخصيته الخاصة .

ولذلك نستطيع أن نقول أن فكرة الشرق الاوسط ، عندما تستولي على الاذهان تصرف الانظار عن الالتفات إلى العالم العربي ، وتعرقل بذلك تبلور مفهوم « العروبة » تبلوراً سلبياً ، وتحول دون تكوين فكرة العالم العربي تكويناً سوياً .

إني كتبت المقالتين التاليتين ـ في تاريخين مختلفين ـ بغية كشف النقاب عن مصدر فكرة الشرق الاوسط ، واظهارها بمظهرها الحقيقي وتخليص خارطة العالم العربي من الظلال المشوِّشة ، التي تلقيها عليها فكرة الشرق الاوسط ، والتي تحول دون ارتسامها في اذهاننا بما تستحقه من الوضوح والبروز .

الشرق والشرقيون

لبعض الكلمات حظ غريب ، وسيرة عجيبة : تلفظها الالسن وتكتبها الاقلام . دون أن تخصصها لمعنى واضح ثابت .

فإن معاني هذه الكلمات كثيراً ما تبقى غامضة الملامح ، مبهمة التقاطيع ، مثل الاشباح التي تتراءى للأنظار من وراء زجاج قليل الشفافية ، أو من بين طبقة كثيفة من الضباب : شكلها لا يظهر بوضوح تام ، بل يكون غامضاً بعض الغموض ، ولكن هذا الغموض يسمح لكل واحد من الناظرين اليها أن يعطيها الشكل الذي يروق له ، أو يتخوف منه أو يتمناه ، أو يتوقعه ، وخلاصة القول : الشكل الذي ترسمه له أوهامه ورغباته .

والناس يكثرون من ذكر تلك الكلمات ويسترسلون في المناقشة حولها ، من غير أن ينتبهوا إلى أن المعنى الذي يقصده منها أحد المتكلمين قد يختلف عن المعنى الذي يفهمه منها مخاطبوه ومعارضوه .

لعل كلمة الشرق من اغرب الامثلة على ذلك .

الشرق ! كلمة تتناقلها الالسن والاقلام . . . تارة مستقلة بذاتها ، وطوراً منسوبة إلى غيرها : الشرق ،الشرقي ،العقلية الشرقية ، الحضارة الشرقية ، العادات الشرقية ، الثقافة الشرقية . . . إلى آخر ما هنالك من الشرقيات . . . التي نسمعها أو نقرأها ، أو نقولها في مختلف المناسبات .

ولكنا إذا ما تساءلنا : ماذا يقصد من كلمة الشرق والشرقي بالضبط ، وجدنا انفسنا أمام فوضى كلامية غريبة ، وبلبلة فكرية شديدة .

من المعلوم أن لكلمة الشرق معنى واضحاً وثابتاً في الجغرافيا . ولكن هذا المعنى الجغرافي نفسه من المعاني النسبية التي تتبع مواضع الأمكنة والأشياء . فلكل مكان شرق خاص به . ولكل شيء شرق لا ينفك عنه . فكل مكان من الأمكنة يكون في غرب بعض المواضع ، وفي شرق بعض المواضع الاخرى . فاذا انتقل المرء من مكان إلى آخر ، انتقلت معه على الفور بعض الأماكن من شرقه إلى غربه . أو من غربه إلى شرقه .

وخلاصة القول ، أن المعنى المفهوم من كلمة الشرق ـ في الاصل ـ هو من المعاني النسبية التي لا يمكن تصورها مجردةً عن كل اعتبار ، ومطلقةً عن كل قيد .

ومع هذا ، قد اعتاد الناس ـ في كل انحاء العالم ـ على استعمال هذه الكلمة بمعنى مطلق ، للدلالة على بعض الاقطار المعينة من الكرة الارضية . وهذا الاستعمال المطلق يفتح باباً واسعاً لضروب من الالتباسات والاختلافات .

فنحن العرب ـ مثلاً ـ نسمي تونس والجزائر ومراكش باسم المغرب . وهذه تسمية صحيحة بالنسبة الينا ، لأن تلك البلاد تؤلف القسم الغربي من العالم العربي . غير أن الأوروبيين ـ ومن جملتهم الفرنسيون ـ يدخلون الاقطار المذكورة في عداد البلاد الشرقية ، مع أنها لم تكن شرقية ـ بالمعنى الصحيح ـ لا بالنسبة اليهم ، ولا بالنسبة الينا . إنهم يدخلونها في عداد البلاد الشرقية ، لمشابهة أحوالها بأحوال بعض البلاد التي هي شرقية حقيقةً بالنسبة اليهم .

فيترتب علينا ، أن نبحث اذن : ما هو الشرق بالنسبة إلى هذا الاستعمال الاصطلاحي ؟ اين يبدأ ؟ وأين ينتهي ؟ وبماذا يمتاز عن الغرب ؟

لقد اعتاد الاوروبيون منذ قرون عديدة على استعمال كلمة الشرق للدلالة على البلاد التي تمتد من تركيا وايران إلى الصين واليابان .

لكنهم صاروا يقسمون البلاد المذكورة إلى ثلاث مناطق كبيرة ، ويسمونها حسب درجة قربها إلى اوروبا : الشرق الأدنى ، والأوسط ، والأقصى .

إنهم يتفقون في اعتبار تركيا مع الشرق العربي من بلاد الشرق الادنى ، كما يتفقون في اعتبار الصين واليابان من بلاد الشرق الاقصى . غير أنهم يختلفون في تعيين حدود الشرق الادنى من ناحية الشرق ، وحدود الشرق الاقصى من ناحية الغرب ، كما يختلفون في تحديد « الشرق الاوسط » من جميع الجهات .

فهناك من يقول : إن الشرق الأدنى هو الشرق المتصل بالبحر الأبيض المتوسط ، والشرق الأوسط هو جميع البلاد المطلة على المحيط الهندي ؛ والشرق الأقصى هو جميع

البلاد الآسيوية التي تقع في المحيط الهادي أو تطل عليه .

وهنـاك من يهجـر تعبـير الشـرق الأدنى ، فيكتفي بتقسيم الشـرق إلى أوسط وأقصى .

وبـين الذين يـذهبون هـذا المذهب من يحصـر مدلـول الشرق الاوسط ، بمصـر وايران وبالبـلاد العربيـة والتركيـة التي تمتد بينهـما ؛ ومن يدخـل بلاد الأفغـان أيضاً في مدلول هذا التعبير .

وهناك من يوسع مدلول الشرق الاوسط أكثر من ذلك ، ويجعله شـاملاً لجميـع البلاد التي تمتد بين تونس وبورما .

ولا أراني في حاجة إلى البرهنة على أن هذا الاختلاف الكبير وحده ، يدل دلالـة قاطعة على أن هذه التقسيمات والتصنيفات ، لا تستنـد إلى أسس ثابتـة من الجغرافيا الطبيعية أو البشرية ، انما هي تقسيمات اعتبارية ، تسعى إلى تقـريرهـا سياسـة الدول الغربية ، حسب ما تقتضيه مصالحها الاقتصادية ، والاستراتيجية ، والاستعمارية .

ومما يلفت النظر أن كثيـراً من المفكرين والكتـاب لا يتقيدون حتى بـأمثال هـذه التحديدات الجغرافية ، بل يطلقون لأقلامهم زمام الاسترسال في تحديد الشرق والبلاد الشرقية بشتى الصور والأساليب .

وأذكر أني كنت قرأت مقالة لمفكر هندي ، كتبها عندما كان يجتاز البحر الأحمر ، فاعتبر البحر المذكور الحد الفاصل بين الشرق والغرب .

كما اذكر أني كنت قرأت رواية لكاتب تركي يقف بطلها على الجسر الموصل بـين طرفي الخليج في استانبول ، ويعتبر نفسه واقفاً بين الشرق والغرب .

وأعـرف أن هنـاك من يقـول بـوجـوب التمييـز بـين الشـرق الجغـرافي والشـرق الثقافي ، ومن يتكلم عن الشرقيّ من حيث السلالة والشرقي من حيث الحضارة .

وهناك من يزعم أن الشرق ينحصر في الهند والصين .

حتى أن هناك من يتردد ويتأرجح في هذا المضمار ، فيحـدد مدلـول الشرق مـرة بشكل ، ومرة اخرى بشكل آخر .

فلا غرابة في كل ذلك :

لأن كلمة الشرق ـ خارج مدلـولها الجغـرافي الاصلي ـ لا تـدل على شيء حقيقي معـين . انما تـدل عـلى امـور اصـطلاحيـة ، نتجت عن بعض الـظروف الـتـاريخيـة ، واختلفت باختلاف تلك الظروف ، وتطورت بتطورها ، بطبيعة الحال :

انشطرت الامبراطورية الرومانية ـ في القرون القديمة ـ إلى امبراطوريتين ، سميت احداهما امبراطورية روما الغربية ، وسميت الثانية امبراطورية روما الشرقية ، نظراً إلى وضعهما الجغرافي بالنسبة إلى الامبراطورية الاصلية .

بعد ذلك بمدة ، انقسمت الكنيسة المسيحية ايضاً إلى شرقية وغربية ، تبعاً للأسماء التي نتجت عن انقسام الامبراطورية .

ثم أخذ مدلول الشرق والغرب يتغير شيئاً فشيئاً ، بعد ظهور الإسلام ، إلى أن أصبح ـ تقريباً ـ يعني العالم الاسلامي والعالم المسيحي .

وعندما قامت الدولة العثمانية ، وأخذت تتوسع في القارة الأوروبية ، صار شمول كلمة الشرق يتغير بتغير حدود الدولة المذكورة . ومن المعلوم أن تعبير « المسألة الشرقية » ظهر ـ أول ما ظهر ـ مرتبطاً باراضي الدولة العثمانية ، وبالقضايا السياسية الناجمة عن أوضاع الدولة المذكورة .

ولكن ، بعد ذلك ، عندما توسع نطاق اهتمام الدول الأوروبية بما وراء الدولة العثمانية ، أخذ مفهوم الشرق يمتد على طول قارة آسيا ؛ ونتج عن ذلك تقسيم البلاد المذكورة إلى الشرق الأدنى والأوسط والأقصى .

وعندما أخذت السياسة الامريكية تلعب دوراً هاماً في هذه البلاد ، لم تر لزوماً للتمييز بين الشرقين الادنى والاوسط ، ولذلك أخذ تعبير الشرق الادنى ينسحب من ميدان الاستعمال شيئاً فشيئاً .

وفي الاخير ، بعد الحرب العالمية الاخيرة ، اكتسبت كلمة الشرق مدلولاً جديداً ، انضم إلى مدلولاتها المتعارفة سابقاً : لأن العالم المتغلب انقسم إلى كتلة شرقية تتزعمها روسيا السوفيتية ، وكتلة غربية تتزعمها الولايات المتحدة الامريكية . ولذلك ، صارت كلمتا الشرق والغرب ، كثيراً ما تستعملان في الميدان السياسي ، للدلالة على العالم الشيوعي والعالم الرأسمالي .

وظل يتطور مدلول كلمة الشرق ـ على هذا المنوال ـ تبعاً لتطور الاوضاع السياسية الدولية .

ومن الغريب انه ـ على الرغم من كل هذه الحقائق والوقائع ـ اندفع ، ولا يزال يندفع ، الكثيرون من المفكرين والكتاب في البحث عن الصفات العقلية والخلقية التي تميز الشرقيين عن الغربيين ، وأخذوا يبدون في ذلك شتى الآراء والنظريات .

فقد تنوعت هذه الآراء والنظريات إلى أقصى حدود التنوع .

وقد اتخذ بعض الكتاب هذه القضية وسيلة للتندر والتفكه ، فقالوا :

الشرقي يكتب من اليمين إلى اليسار ، واما الغربي فيكتب من اليسار إلى اليمين .

الشرقي يخلع حذاءه من رجليه عندما يدخل المعبد ، واما الغربي فيرفع قبعته عن رأسه .

الشرقي يعتبر تدخل الاطفال في حديث الكبار من دلائل قلة الأدب وسوء التربية ، واما الغربي فيعتبر ذلك من علائم الذكاء والنباهة .

ولكن بعض الكتاب نظروا إلى قضية الشرق والغرب ، من زوايا السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الديانة :

فقال أحدهم : الشرق زراعي والغرب صناعي .

وقال آخر : الشرق بلاد الروحانيات والغرب بلاد الماديات .

وقال أحدهم : الشرق بلاد الأحلام ، والغرب بلاد الحقائق .

وقال آخر : الشرق بلاد الاستبداد ، والغرب بلاد الحرية .

وقال بعضهم : الشرق بلاد الشعر والأدب ، والغرب بلاد العلم والعمل .

وهكذا ، استرسل المفكرون والكتاب في بيان الأوصاف التي تميز ـ على زعمهم ـ الشرق عن الغرب والشرقيين عن الغربيين .

وبناء على هذه الظروف ، زعم البعض : إن الشرق شرق والغرب غرب ، وسيبقيان متخالفين على الدوام .

في حين أن البعض الآخر قال بعكس ذلك : لا حياة للنوع البشري ، إلاّ بتمازج الشرق والغرب .

وقال آخرون : إن الانسانية لن تكتمل الا بانضمام حكمة الشرق إلى علم الغرب .

إن قليلاً من التأمل في أحوال الأمم وأحداث التاريخ، يكفي للتأكد من أن هذه الاقوال لا تنطبق على حقائق الامور ، أن كل واحد منها يستند إلى بعض الملاحظات والمشاهدات المحصورة في زمان معين ومكان محدود من بعض البلاد الشرقية . وتعميم هذه الملاحظات والمشاهدات المحدودة على سائر الأزمنة والأمكنة ، لا ينطبق على مقتضيات العقل والمنطق ، بوجه من الوجوه .

فإن الحرية مثلاً ، لم تختص أبداً بالبلاد التي تسمى غربية ، كما أنها لم تلازم شؤون تلك البلاد على الدوام . والبلاد التي نراها الآن متمتعة بحرية واسعة النطاق ، قد شهدت في الماضي عدة عهود من الاستبداد الفظيع . .

ونستطيع أن نقول نفس الشيء بالنسبة إلى الماديات والمعنويات ، وبالنسبة إلى الزراعة والصناعة . . . أيضاً .

ومن العبث أن نبحث عن أوصاف تشمل جميع الشرقيين ، وتميزهم عن جميع الغربيين . . . بعد أن علمنا ـ من بحثنا السابق ـ أن تعبير البلاد الشرقية والبلاد الغربية نفسه ، من التعبيرات الاصطلاحية التي لا تستند إلى حقائق طبيعية .

إن تقسيم البلاد والأمم ـ بهذه الصورة ـ إلى شرقية وغربية ، يشبه تمام الشبه التقسيمات البدائية السطحية التي يركن اليها الأطفال والاقوام في بدء حياتهم الفكرية ، والتي يلجأ اليها عوام الناس أيضاً في بعض الأحيان .

من المعلوم أن الرومان كانوا يسمون الأجانب باسم « الباربار » بوجه عام ، من غير أن يأخذوا بنظر الاعتبار الفروق العظيمة التي تميز طوائف هؤلاء بعضها عن بعض .

وأجدادنا العرب القدماء كانوا ينعتون غير العرب باسم « العجم » ، من غير أن يعبأوا بما بين أنواع هؤلاء من اختلاف ، من حيث الأوصاف المادية والمعنوية ، من السحنة والشمائل واللغة والعادات .

وفي وقت قريب من أيامنا هذه ، كان قد نشأ معظم الناطقين بالضاد على تسمية الاوروبيين والامريكيين باسم « الافرنج » بوجه عام ، بقطع النظر عما بينهم من فروق كبيرة .

ومن المعلوم أن سواد الناس في مصر ، يطلق صفة « التركي » على كل الذين يأتون من استانبول أو الأناضول ، سواء كانوا من الألبان والشركس والكرج أو الاتراك . . على الرغم مما بين هؤلاء من فروق واختلافات .

إن أمثال هذه التقسيمات والتعبيرات تتولد من النظرات السطحية ، وتهمَل وتهجر ، عندما يُنظر إلى حقائق الاشياء بشيء من الدقة والتفصيل .

ويجب أن نعلم العلم اليقين أن كلمات الشرقي والغربي ، والشرقية والغربية ، لا تختلف في هذا المضمار عن الكلمات التي ذكرتها آنفاً .

فلا شك في أنها لن تعمر طويلاً بعد الآن ، بل ستهمل وتهجر ـ عاجلاً أو آجلاً ـ كما هجرت كلمات الباربار والعجم والافرنج .

الشرق الأدنى والشرق الأوسط

ـ ١ ـ

إن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ـ المعروفة باسم اليونسكو ـ اقترحت سنة ١٩٤٨ ، إنشاء مركز ثقافي خاص بالشرقين الأدنى والأوسط .

ورأت أن يشمل هذا المركز « بلاد الجامعة العربية وتركيا وإيران والأفغان » ، وأن يعمل لضمان تعاون البلاد المذكورة بعضها مع بعض ، في ميداني التربية والثقافة ، بمساعدة اليونسكو .

وقد قدم مشروع هذا المركز إلى جامعة الدول العربية ، ووضع على بساط البحث في اللجنة الثقافية التابعة للجامعة المذكورة ، خلال إنعقادها في مصيف بحمدون في جبل لبنان .

وأنا ، عندما أطلعت على تفاصيل هذا المشروع عارضته بشدة من الوجهتين العلمية والقومية .

عارضته من الوجهة العلمية . لأني أعرف أن الثقافة لا تتبع التقسيمات الجغرافية ـ الطبيعية أو السياسية ـ وأن حدود ما يمكن أن يسمى المناطق الثقافية تختلف عن حدود ما يسمى مناطق جغرافية ، فإنشاء مراكز ثقافية على أسس جغرافية يخالف طبيعة الثقافة مخالفة كلية .

ومما يزيد هذه المخالفة خطورة ، إن المنطقة التي يسمونها الشرق الأدنى والأوسط ، لهي منطقة إصطلاحية خطت حدودها سياسة الدول الغربية ، وفقاً لمصالحها الخاصة ، من غير أن تأخذ بنظر الاعتبار إختلاف سكان أقسامها المختلفة من

حيث اللغة والثقافة والمصالح والتقاليد .

فإذا أرادت اليونسكو أن تنشيء مراكز فرعية ، يجب عليها أن تفعل ذلك على أساس الخصائص الثقافية ، لا على أساس التقسيمات الجغرافية والسياسية .

وعارضت المشروع من الوجهة القومية ، لأني أعتقد أن الثقافة في البلاد العربية قد تبلبلت إلى أقصى حدود التبلبل ، من جراء سيطرة الثقافات الأجنبية المختلفة على مختلف أقطارها ، فهي الآن في أشد الحاجة إلى لمّ الشعث ، والتحرر من سيطرة الثقافات الأجنبية ، لكي تكسب شخصية واضحة ، فتصبح عربية عصرية بكل معنى الكلمة . فلا يجوز لنا أبداً ـ والبلاد العربية في هذه الحالة من التبلبل الثقافي ـ أن نعود فنسعى إلى زيادة الاتصال بالثقافة التركية والايرانية .

لا يجوز لنا أبداً أن نوجه جهودنا نحو مركز ثقافي لا يشمل إلا جزءاً من البلاد العربية ، ويحشر ثقافة هذا الجزء نفسه مع ثقافات تركيا وإيران ، فيعرقل بذلك نموها نمواً سوياً ، ويبعدها عن الطرق المؤدية إلى استكمال وسائل الاستقلال والازدهار .

يجب علينا أن ننضم إلى الهيئات الدولية التي تعنى بشؤون العلم والتربية والثقافة ، لكي نرتوي بزلال العلم والمعرفة والثقافة من منابعها الأصلية ، ويجب علينا أن نسعى إلى تأليف منظمات علمية وثقافية تشمل جميع البلاد العربية . ولكنه لا يجوز لنا أن نساهم في تكوين مركز ثقافي يشمل البلاد المعروفة باسم « الشرق الأوسط » ونتجاهل بذلك شخصية عالمنا العربي .

- ٢ -

إني عارضت « مشروع المركز الثقافي الخاص بالشرقين الأدنى والأوسط » لهذه الملاحظات الأساسية .

ولكني لاحظت أن معارضتي هذه أثارت إستغراب عدد غير قليل من أعضاء اللجنة . لأنهم كانوا متأثرين بكثرة ما يقوله ويكتبه الأوروبيون والامريكيون عن الشرق الأوسط ، غير منتبهين إلى النظرات السياسية الخاصة التي أوجدت فكرة هذه المنطقة .

والمناقشات التي جرت خلال إجتماعات اللجنة لم تقنع هؤلاء بضرورة رفض المشروع ، ولكنها حالت دون الموافقة عليه . فأحالت اللجنة هذه القضية إلى الدول العربية نفسها ، وذلك أدى إلى إهمال المشروع .

إن مدير اليونسكو جوليان هكسلي إنفعل كثيراً من عدم إقرار المشروع ، فكتب

في التقرير السنوي الذي قدمه إلى مؤتمر اليونسكو عدة عبارات جارحة واصفاً المعارضة التي لاقاها المشروع بالمخاتلة ، وبالاقليمية الضيقة القائمة على أساس الثقافة العربية وحدها .

وأنا عندما قرأت التقرير المذكور ، أرسلت إلى جوليان هكسلي كتاباً خاصاً ، شرحت فيه وجهة نظري ، وفندت الآراء التي أبداها في تقريره .

إني أنقل فيما يلي بعض الفقرات الهامة من الكتاب المذكور لعلاقتها بموضوع القومية العربية والثقافة العربية بوجه عام[٢] .

لقد قلت في صدد إنتقاد مشروع المركز الثقافي الخاص بالشرقين الأدنى والأوسط ما يلي :

« إن إحداث أمثال هذه المراكز الاقليمية من الأمور التي يصعب تآلفها مع الروح التي كونت اليونسكو : لماذا نقدم على إحداث « حظائر إقليمية » داخل نطاق اليونسكو ، ما دمنا ندعو جميع أمم الأرض إلى التعاون والتكاتف في ميادين العلم والتربية والثقافة ؟

« إن العلم بطبيعته عالمي فجميع الأمم تستطيع أن تتعاون في هذا المضمار ، بدون أي تحفظ كان . ولكن التربية بطبيعتها قومية . وإنها تبقى قومية ، حتى عندما تستوحي أعمالها من فكرة التفاهم الإنساني، فتتغلغل في سبيل التعاون الأممي . وذلك لأن الفكرة الأممية ترمي إلى تنوير التربية وتوجيهها ، دون أن تنزع عنها صفتها القومية . ولهذا السبب نستطيع أن نؤكد أن التربية لا تستفيد شيئاً من إحداث منظمة إقليمية متفرعة من منظمة أممية إذا قامت هذه المنظمة الاقليمية على أسس جغرافية ، لا قومية .

« وأما الثقافة فإنها تتألف من عناصر كثيرة ، قسم منها قوميّ وقسم آخر منها أمميّ ، ولهذا السبب هي أيضاً لا تستفيد شيئاً من إحداث منظمة إقليمية . تنحشر بين المنظمات القومية والمنظمات الأممية .

« زد على ذلك أن الثقافة لا يمكن أن تأتلف أبداً بمنظمة قائمة على أسس جغرافية ، إذ يجب علينا أن نلاحظ ـ عندما نتكلم عن الثقافة ـ بأنها تتلاعب بالمسافات ، ولا تخضع أبداً للتحديدات الجغرافية : لا بد أنكم تعرفون جيداً ـ يا عزيزي هكسلي ـ أن بلاد المكسيك والأرجنتين ـ مثلاً ـ قريبتان جداً من اسبانيا ـ من

---

(٢) نص الكتاب الكامل في : آراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة (القاهرة : مطبعة الاعتماد ، ١٩٥١) ، ص ١٦٣ ـ ١٨٠ .

الوجهة الثقافية ـ بالرغم من عظم المسافات التي تفصل بينهما . في حين أنه ـ بعكس ذلك ـ مدينة دوفر الانكليزية بعيدة جداً عن مدينة كاليه الفرنسية ـ من الوجهة الثقافية ـ بالرغم من ضيق القنال الذي يقرّبهما . وعلى هذا الأساس يجب أن تسلموا معي ، أنه من الوجهة الثقافية : سوريا أقرب إلى تونس منها إلى تركيا ، والعراق أكثر جواراً إلى مراكش منه إلى إيران .

« أفلا يحق لي إذن أن أقول مستنداً إلى هذه الحقائق التي لا يمكن لأحد أن ينكرها : إن الاقدام على إنشاء مراكز اقليمية في قلب اليونسكو مثل المركز المقترح للشرق الأدنى والأوسط ، يكون عملاً منافياً لطبيعة الأشياء ولمصالح اليونسكو ، في وقت واحد ؟» .

وبعد بعض التفاصيل الفرعية ، قلت :

« نحن العرب ، إنضممنا إلى منظمة اليونسكو ، وهي غير منقسمة إلى حجر متحاجزة . ونتمنى لهذه المنظمة العالية أن تتجنب مغبة الانقسام إلى حجرات إقليمية . ومهما كان الأمر ، نحن لا نود أن نُحجز في حجرة خاصة ، ولا سيما في هذه الحجرة المشهورة التي تسمونها أنتم باسم الشرق الأدنى والأوسط . نحن نريد أن نتعاون مع جميع أمم العالم ، داخل منظمة اليونسكو بصفتنا عرباً ، لا بصفتنا شرقيين . . . » .

« وأما علاقاتنا الثقافية مع بعض الدول بوجه خاص ، فنحن نود أن نقرم بتنظيمها باتفاقات خاصة نعقدها بعد مذاكرات مباشرة ، كما فعلت ذلك ولا تزال تفعل جميع الدول الأوروبية والامريكية . وذلك دون وساطة اليونسكو ، ودون مداخلة منظمة أقليمية متفرعة من اليونسكو . وبكلمة واحدة : نحن نود أن يكون لنا داخل هذه المنظمة الأممية موقف مماثل تمام المماثلة لمواقف الأمم الأخرى ، مثل البلجيك والدانمرك ، وإيطاليا . . . » .

ثم فندت مزاعم جوليان هكسلي من تعليل موقفنا بالتعصب الديني وبالانعزالية الثقافية ، فقلت :

« إن قليلاً من التفكير الحيادي كان يكفي لإظهار الحقيقة بكل وضوح ، ولإقناعكم بأن موقف الذين لم يحبذوا مشروع إنشاء المركز العلمي لم يكن ناجماً عن تعصب ديني أو إنعزالية ثقافية ، بل انه ناجم عن فهم أصحّ لما يسمى الشرق والثقافة الشرقية . . . » .

وأعتقد أن الملاحظات التي سردتها آنفاً تكفي للبرهنة على الأخطاء العديدة التي تنطوي عليها فكرة الثقافة الشرقية ـ برهنة قاطعة .

وأما الذين لم يسلموا معي - في اللجنة الثقافية - بأن فكرة الشرق الأوسط وليدة سياسة الدول الغربية ، فأميل إلى الظن بأنهم وجدوا في الوقائع التي حدثت بعد ذلك ما حملهم على تغيير رأيهم في هذا المضمار .

إلا أني ألاحظ في الوقت نفسه بأن أمثال هؤلاء كثيرون . فلا يزال كثير من المثقفين - في مختلف الأقطار العربية - غير متبهين إلى ما وراء فكرة الشرق الأوسط من دوافع سياسية ، وإلى ما وراء الاستسلام لها من أضرار قومية .

ولذلك رأيت أن أكشف الستار عن مصدر هذه التسمية وكتبت الفصل السابق ، وأعتقد أن فيه ما يكفي لتنوير الأذهان في هذه القضية الهامة . ومع هذا ، رأيت أن أشير هنا إلى تصريحين سياسيين ، لإزالة كل آثار الشكوك التي قد تساور بعض الأذهان .

لقد كتب السير وينستون تشرشل في مذكراته عن الحرب العالمية الأخيرة - في ٢٦ آب (اغسطس) سنة ١٩٤٢ - ما يلي :

« إن المسائل التي كان يجب حلها الآن ، ما كانت تتناول أشخاص المناصب العليا فحسب ، بل كانت تشمل كل بناء القيادة في هذه الساحة الفسيحة من سوح العمليات الحربية . إني كنت أشعر على الدوام أن تسمية مصر والمشرق وتركيا باسم « الميدل ايست » - أي الشرق الأوسط - لم تكن من التسميات الموفقة ، فإن هذه البلاد تؤلف الشرق الأدنى ، وإيران والعراق تؤلفان الشرق الأوسط ، وبلاد الهند وبرمانيا وماليزيا تؤلف الشرق . وأما الصين واليابان ، فتؤلفان الشرق الأقصى » .

ولهذه الملاحظات ، رأى تشرشل ضرورة تقسيم قيادة الشرق الأوسط ، التي كانت بالغة التنوع ، وشديدة الميل إلى التوسع . ولذلك أصدر مساء ذلك اليوم التعليمات التالية :

« يعاد النظر في تنظيم قيادة الشرق الأوسط على أساس تقسيمها إلى قيادتين منفصلتين ومستقلتين :

أ - قيادة الشرق الأدنى - شاملة مصر وفلسطين وسوريا على أن يكون مركزها القاهرة .

ب - قيادة الشرق الأوسط - شاملة العراق وإيران ، على أن يكون مركزها بغداد » .

يلاحظ من هذه الكلمات الصادرة من قلم ونستون تشرشل ، إن الإبرة الموجهة لهذه التسميات والتقسيمات إنما هي الحاجات الحربية التي تشعر بها الحكومة البريطانية .

فقد جمع تشرشل سوريا وفلسطين ومصر تحت اسم الشرق الأدنى ، ولكنه فصل العراق عن هذه المجموعة وعن سائر البلاد العربية ، وأدخله في نطاق الشرق الأوسط مع إيران . وكل ذلك ليس بناء على أحوال هذه البلاد نفسها ، إنما بناء على المساعدة التي تنتظرها منها السياسة البريطانية ، خلال الحرب التي تخوض غمارها .

ولكن ، بعد مرور نحو تسع سنوات على تاريخ كتابة هذه الكلمات وإصدار هذه التعليمات ، سمع مجلس العموم البريطاني تصريحات رسمية تختلف عن ذلك إختلافاً تاماً ، فقد وجه أحد النواب الانكليز إلى الحكومة السؤال التالي : « ما هي البلاد التي تدخل في نطاق الشرق الأدنى ، حسب الاصطلاحات الرسمية ؟ » .

فأجاب وكيل وزارة الشؤون الخارجية المستر دافيس عن هذا السؤال بما يلي :

« إن تعبير الشرق الأدنى الذي لازم السلطنة العثمانية يعتبر الآن في بريطانيا العظمى مما فات أوانه في اللسان الرسمي ، ويستعاض عنه الآن بتعبير الشرق الأوسط . ومجموعة البلاد التي يشار إليها بهذا التعبير تشمل : مصر ، وتركيا ، والعراق ، وسوريا ، ولبنان ، واسرائيل ، والعربية السعودية ، وإمارات الكويت ، والبحرين ، وقطر ، ومسقط ، ومحمية عدن ، واليمن » .

وعندما سأله أحد النواب : « واليونان ؟ » ، أجابه مستر دافيس قائلاً : « اليونان تقع في مدار البحر الأبيض المتوسط » .

يلاحظ أن هذا التصريح الرسمي الذي صدر عن لسان وكيل وزارة الخارجية سنة ١٩٥١ ، يخالف الرأي الذي كان صدر من قلم وينستون تشرشل سنة ١٩٤٢ : فقد قال تشرشل بلزوم فصل الشرق الأدنى عن الشرق الأوسط . وأما المتحدث الرسمي فقد قال ـ بعكس ذلك ـ بلزوم هجر تعبير الشرق الأدنى ، وجمع تلك البلاد كلها في منطقة واحدة ، تسمى الشرق الأوسط .

لماذا ؟ لماذا تغير رأي الحكومة البريطانية هذا التغير الكبير خلال تسعة أعوام ؟

إن الدوافع السياسية التي تطل برأسها في كل واحد من التعريفين المذكورين آنفاً ، تظهر وتبرز إلى العيان ، عندما نستعرض الظروف ونستقصي الأسباب :

خلال سنة ١٩٤٢ ، كانت انكلترا تحارب مع روسيا ضد ألمانيا ؛ ولكنها سنة ١٩٥١ صارت تستعد للمحاربة مع ألمانيا ، ضد روسيا .

سنة ١٩٤٢ ، كانت انكلترا تحارب في البلاد الشرقية المذكورة في جبهتين مختلفتين . لهذا السبب رأت أن تقسم القيادة إلى قيادتين مستقلتين . وتبريراً لذلك عززت فكرة الشرقين الأدنى والأوسط .

ولكن خلال سنة ١٩٥١ ، صارت تضع خططها الحربية على أساس جبهة واحدة . فلم تعد ترى لزوماً إلى تقسيم البلاد المذكورة إلى منطقتين . بل بعكس ذلك ، صارت ترى أن مصلحتها تقضي باعتبار البلاد المذكورة منطقة واحدة ، لكي يسهل عليها حشد الجيوش ، وتموينها وسوقها ، حسب ما تستلزمه خططها العسكرية ، في الهجوم والدفاع .

ولهذا السبب هجرت بريطانيا العظمى تعبير الشرق الأدنى ، ووسعت مدلول الشرق الأوسط ، حتى جعلته يشمل مصر وإيران وما بينهما من بلاد ـ من البحر الأسود إلى المحيط الهندي ، أي من تركيا إلى اليمن وحضرموت .

أعتقد أن هذه التفاصيل لا تترك مجالاً لأي شك كان في صحة ما قلناه آنفاً : إن هذه التقسيمات والتسميات لا تقوم على أساس من التاريخ أو من الجغرافية الطبيعية أو البشرية . إنما هي تقسيمات تتمشى مع سياسة الدول الغربية .

ومما يلفت النظر : ان فرنسا أشد البلاد الغربية تمسكاً بتعبير الشرق الأدنى ، والولايات المتحدة الأمريكية أكثرها إستعمالاً لتعبير الشرق الأوسط . وأما بريطانيا فقد انتقلت من التعبير الأول إلى التعبير الثاني ، خلال عقد واحد من السنين .

ولا أراني في حاجة إلى القول بأن أسباب ذلك ، تعود إلى مبلغ اهتمام كل واحدة من هذه الدول بكل قسم من أقسام البلاد المذكورة .

كما ألاحظ أن التعبير الثاني أخذ يتغلب على التعبير الأول ، ويقصيه عن الحلبة ، في كل أنحاء العالم ، تبعاً لتغلب السياسة الامريكية على السياسة الأوروبية .

إستراتيجية الشرق الأوسط

سألني أحدهم ، يوماً :

ـ لماذا لا تلقي في معهد الدراسات العربية العالية ، محاضرات عن إستراتيجية الشرق الأوسط ؟

فأجبته على الفور :

ـ لأننا لا نعترف بوجود الشرق الأوسط . إنما نقول بوجود العالم العربي ، وندرس هذا العالم .

وأما ما يسمونه « إستراتيجية الشرق الأوسط » فما هو ـ في نظرنا ـ إلا : استراتيجية الدول الغربية في البلاد التي يطلقون عليها اسم الشرق الاوسط .

وحدة اللغة ووحدة القومية

- ١ -

لقد اثبتت الابحاث العلمية والاحداث السياسية أن اهم عناصر القومية ودوافعها هي : اللغة والتاريخ

فاللغة بمثابة حياة الامة ، والتاريخ بمثابة شعورها ، وقد صارت الفكرة القومية ـ منذ اوائل القرن الماضي ـ من أهم الفكر القوانية idées forces التي غيرت وجه التاريخ ومجراه : لقد تفككت أوصال الامبراطوريات التي كانت تتألف من قوميات عديدة ، وبعكس ذلك اتحدت الدول والدويلات التي كانت تنتسب إلى قومية واحدة ، فاكتسبت خارطة أوروبا السياسية ـ من جراء ذلك شكلاً جديداً ، يختلف عن شكلها القديم اختلافاً كلياً .

واما الأمة العربية ، فقد تأخرت في الشعور بقوميتها الخاصة . وعندما انفصلت عن الدولة العثمانية ، انقسمت إلى عدة وحدات سياسية بتأثير مناورات ومساومات الدول الاستعمارية ، فتأخرت في الشعور بوحدتها القومية .

فقد آن الأوان ليدرك الناطقون بالضاد أنهم ابناء أمة واحدة ، على الرغم من تعدد دولهم في الحالة الحاضرة . وأن يعملوا لتكوين دولة موحدة ، ليصبحوا أقوياء من جميع الوجوه : الثقافية ، والاقتصادية ، والعسكرية ، والسياسية .

- ٢ -

إن هذه الحقائق التي اصبحت من بديهيات التاريخ والسياسة لا تزال تصطدم ـ مع الاسف ـ بمعارضات متنوعة ، من وجوه عديدة .

إن معظم هذه المعارضات تأتي من المنافع الخاصة التي يجنيها بعض الرجال وبعض الطوائف من الاوضاع الحالية ، وبعضها يتقنع بقناع « المعارضة الفكرية » .

وأهم هذه المعارضات الفكرية تحوم حول قضية « تأثير اللغة في تكوين القوميات » .

يقول معارضو فكرة الوحدة العربية « أن اللغة لم تكن العامل الاصلي في تكوّن الامم ، وتوحد الدول أو تفرقها »،ويستشهدون على صحة زعمهم هذا ، بانفصال الاقطار الامريكية عن انكلترا واسبانيا والبرتغال ، وعدم تفكك أوصال سويسرا وبلجيكا .

إنهم يقولون : « أن الولايات المتحدة الامريكية انفصلت عن انكلترا ، مع أنها انكليزية اللغة ، واقطار امريكا اللاتينية انفصلت عن اسبانيا والبرتغال ، مع أنها لا تختلف عنهما من حيث اللغة ، ثم أن هناك الدولة البلجيكية التي يتكلم سكانها لغتين مختلفتين ، وهناك سويسرا التي يتكلم سكانها بثلاث لغات مختلفة » .

إني بدأت اقرأ واسمع هذا اللون من المعارضة منذ ربع قرن وقد فندتها عدة مرات ، مستنداً إلى الحقائق التاريخية .

ولكني لا أزال أرى واقرأ من يكررها ، كأنها أدلة حاسمة ضد فكرة الوحدة العربية .

وقد قرأت قبل مدة وجيزة ، حديثاً لأحد كبار المشتغلين بالقضايا العربية ، يعارض فكرة الوحدة العربية ، فيقول في جملة ما يقوله :

« ألا ترى أن كل امريكا الوسطى والجنوبية تتكلم لغة واحدة ، وهي اللغة الاسبانية ، عدا البرازيل ، فهل تفكر دولة من هذه الدول ، في أن يكون الجميع تحت راية واحدة ورجل واحد ؟ وهل تفكر البرازيل في الانضمام إلى البرتغال ، وهي قد سعت في الانفصال عنها بحروب طاحنة ، كما سعت الأمم اللاتينية في الانفصال عن اسبانيا ؟ وها هي ذي امريكا ، الولايات المتحدة الامريكية وانكلترا تتكلم جميعها لغة واحدة ، وهم انكلو سكسون ، فهل فكر أحد في تكوين دولة واحدة منهما ؟ » .

ولذلك رأيت أن أعود إلى هذه القضايا مرة اخرى ، على أن اعالجها هذه المرة بتفصيلات وافية ، مع شرح الحقائق التاريخية والاجتماعية التي كنت اكتفي بذكرها ، دون أن ارى لزوماً إلى تفصيلها .

وقبل كل شيء أود أن الفت الانظار إلى الحقيقة التالية : يستند المعارضون ـ في الحالة الحاضرة ـ إلى أمثلة محدودة ، هي امريكا ، بلجيكا ، وسويسرا .

ولكن ، يجب أن لا ننسى أن أمثال ذلك كان يتجاوز المائة قبل عصر واحد ، والخمسمائة قبل قرنين من الزمان . إذ كانت المانيا الحالية منقسمة إلى اكثر من اربعمائة دولة ودويلة . وكانت ايطاليا موزعة بين عشر وحدات سياسية . وكانت الامبراطورية النمساوية تحكم بلاداً يتكلم سكانها سبع لغات مختلفة . وكان عدد اللغات التي يتكلم بها سكان البلاد التابعة للسلطنة العثمانية يزيد على العشرة .

ولكن . . . منذ اوائل القرن التاسع عشر ، اخذت جميع هذه الاوضاع تزول شيئاً فشيئاً . اتحدت الاقطار الايطالية ، وتوحدت الدول الالمانية ، تفككت اوصال الامبراطورية النمساوية ، وانحلت عناصر السلطنة العثمانية . فتكوّنت بهذه الصورة دول جديدة ، تقوم على أساس القومية ، وانحصرت الدول التي تبدو مخالفة لمبدأ القوميات ، في هذه الامثلة المحدودة التي يذكرها ، ويتبجح بها معارضو فكرة الوحدة العربية .

فيجدر بنا أن ندرس هذه الامثلة بتعمق كافٍ ، ونستقصي العوامل المؤثرة في اوضاعها الحالية استقصاء وافياً ، لنرى : هل هي مخالفة حقيقة لمبدأ قيام الدول على أساس القوميات ، ولنظرية تأثير اللغة في تكوين القوميات ، أم أن مخالفتها هذه ليست الا مخالفة ظاهرية ، مثل مخالفة بعض الحوادث الطبيعية لقانون الجاذبية الارضية ؟ !

من المعلوم أن ما نسميه الجاذبية الارضية يؤثر في جميع الاجسام . فجميع الاجسام تسقط نحو الارض ، ما لم تصادف مانعاً يوقفها في محلها ، ويمنعها من السقوط . ومع ذلك نشاهد بعض الظواهر الطبيعية التي تبدو مخالفة لقانون الجاذبية الارضية . فالدخان ـ مثلاً ـ يرتفع في الهواء ، والطيور والفراشات وكثير من الهوام والحشرات تطير في الهواء . والصعّادات والطيارات تتباعد عن سطح الارض آلاف الامتار ، دون أن تسقط نحو الارض .

ولكنا نعرف من الابحاث العلمية أن كل هذه الحوادث الطبيعية ليست ـ في حقيقة الأمر ـ مخالفة لقانون الجاذبية : فإذا كان الدخان يرتفع في الهواء ، والسبب في ذلك يعود إلى كونه أخف من الهواء الذي يلاصق الارض ، فارتفاع الدخان في الهواء يتم بسبب الجاذبية الارضية نفسها ، وإن بدا مخالفاً لها .

وكذلك الأمر في طيران الطيور والطيارات : فإنها ترتفع في الهواء ، بسبب قوة اخرى تعاكس الجاذبية الارضية وتتغلب عليها . إنها تبقى تحت تأثير هذه الجاذبية حتى عندما تصعد في اتجاه شاقولي ، يعاكس اتجاه الجاذبية الارضية تمام المعاكسة .

والتفاصيل التالية ، ستبرهن على أن الامثلة التي يحاول الاستشهاد بها معارضو فكرة الوحدة العربية كلها من هذا القبيل . إنها لا تدل على عدم تأثير اللغات في قيام الدول وتكوين القوميات بوجه من الوجوه .

مثال الولايات المتحدة الامريكية

يقـول المعارضـون : لو كـانت اللغات اسـاس القوميـات حقيقة ، لمـا انفصلت الولايات المتحدة الامريكية عن المملكة البريطانية لأنها انكليزية اللغة مثلهـا . ولكني ـ رداً على هذا القول ـ ألفت الانظار إلى حقيقتين هامتـين ، يجب أن لا تغربـا عن البال عند بحث هذه القضية ومناقشتها :

ـ ١ ـ

الحقيقة الاولى التي يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار في هـذا المضمار تتعلق بتـاريخ حدوث الانفصال ، وبالاحوال التي كانت تسود العالم في ذلك التاريخ :

من المعلوم أن الولايات المتحدة الامريكية انفصلت عن المملكة البريطانيـة ، في بداية الربع الرابع من القرن الثامن عشر ، سنة ١٧٧٦ .

في ذلك التاريخ ، كان العالم بأجمعه بعيداً عن التفكير في أمر القوميات وفي مبدأ سيـادة الشعوب . كـانت البلاد تعتبـر من ممتلكات الملوك والامـراء ، وكثيراً مـا كانت تنتقـل من حكم إلى حكم ، ومن مملكة إلى مملكـة عن طريق الارث أو الصَّـداق ، أو البيـع والشراء ، فضـلاً عن الحرب والاستيـلاء . كانت المـانيا منقسمـة إلى أكـثر من أربعمائة دولة ، وكانت اسبـانيا تحكم هـولندا من جهـة ، وصقلية من جهـة اخرى . وكان السويسريون يعرضون خدماتهم العسكرية على هذه الدولة أو تلك ، كـما يعرض العمال والكتّاب والمهندسون خدماتهم ـ في عصرنا هذا ـ عـلى هذه المؤسسـة أو تلك . وكان بعض الملوك في المانيـا يجندون جمـاعة من رعيتهم ويـدربونهم عـلى فنون الحـرب والقتال ، ثم يبيعونهم إلى الدول التي تحتاج إلى جيوش ، كما تباع الامتعة والمنتجات .

ومن البديهي أن ما حدث في تلك الازمنة ، وفي تلك الظروف لا يجوز أن يعتبر دليلاً على أيّ شيء كان في قضايا القوميات .

إن نظرة سريعة إلى الاسباب التي ادت إلى انفصال الولايات المتحدة الامريكية عن المملكة البريطانية تزيدنا تأكداً من هذه الحقيقة .

إن اهالي المستعمرات الثلاث عشرة التي كوّنت النواة الاولى للولايات المتحدة الامريكية ، كانوا هاجروا إلى تلك البلاد ، تخلصاً من الاضطهادات الدينية والسياسية التي كانت تسود القارة الأوروبية وسعياً وراء حياة حرة ، مصونة من أنواع الظلم والاعتساف . إنهم كانوا تركوا اوطانهم إلى تلك البلاد النائية وتكبدوا مشاق الاغتراب في تلك البيئات الجديدة ليوجدوا مجتمعاً أفضل من المجتمع الذي كانوا نشأوا فيه .

والحكومة البريطانية تركتهم في بادىء الأمر يعيشون هناك احراراً كما يشاؤون إلا أنها ـ بعد مرور مدة من الزمن ـ أخذت تستغل جهود هؤلاء المغتربين ، لمصلحة طائفة من المتمولين الباقين في بلادهم الأصلية : صارت تفرض عليهم ضرائب جائرة ، وأوصلت الأمر إلى حد منعهم من الاتجار مع البلاد المجاورة لهم واجبارهم على التعامل مع التجار المقيمين في الجزر البريطانية على وجه الانحصار .

إن ذلك كان يضعهم في وضع أتعس من الوضع الذي كانوا عليه في بريطانيا العظمى قبل هجرتهم إلى امريكا ، من عدة وجوه . هناك كان قد تأسس نوع من الحياة النيابية ، وكان قد تقرر أن لا يفرض على الناس أية جزية ، ما لم يوافق عليها ممثلو الشعب . ولكن الآن ، في المهاجر الامريكية صارت تفرض عليهم الضرائب ، دون أن يؤخذ رأيهم فيها . وصار نشاطهم الاقتصادي يقيد بقيود جائرة ، لمصلحة طائفة من اصحاب الجشع الباقين في بلادهم الأصلية .

فكان من الطبيعي أن يحتجّ هؤلاء على هذه الاوضاع . إنهم لم يطلبوا ـ في بادىء الأمر ـ الانفصال عن المملكة البريطانية . بل بعكس ذلك ظلوا يؤكدون ولاءهم للعرش . إنما كانوا يطالبون بالتمتع بالحريات والحقوق المعتادة في بريطانيا نفسها . ولكن الحكومة البريطانية لم تلتفت إلى تلك المطالب . بل اقدمت على ارسال قوى عسكرية ، بغية اخضاع سكان تلك المستعمرات لأوامر السلطة المركزية الجائرة .

عندئذ أدرك هؤلاء ، أن السبيل الوحيد للتخلص من هذه القيود الاعتسافية ، هو الانفصال والاستقلال .

ومما يلفت النظر أن الشخص الذي تحمس لفكرة الانفصال أشد التحمس ، وبذل في سبيل الدعوة إلى هذه الفكرة أعظم الجهود كان ممن انتقلوا إلى امريكا في وقت

قريب جداً : إن مدة اقامة « طوماس باين » في امريكا عند اعلان الاستقلال كانت عبارة عن سنة واحدة وثلاثة اشهر فحسب . إنه كان يقول : من العبث أن نأمل اصلاح الاحوال من الحكومة القائمة في بريطانيا العظمى . فعلينا أن ننفصل عنها ، ونكوّن جمهورية انكليزية في القارة الامريكية ، علينا أن نعطي المثال الفعلي لحضارة أمثل ، ولحكومة خالية من ضروب الظلم والفساد .

ويظهر من كل ذلك : إن حركة انفصال تلك المستعمرات كانت بمثابة ثورة داخلية ، ثورة على الظلم والاستبداد ، مثل ثورة كرومويل التي كانت سبقتها قبل مدة ، ومثل ثورة الفرنسيين التي ستعقبها بعد نحو ثلاثة عشر عاماً .

إنها لم تكن من نوع الحركات الاستقلالية القومية ، التي ترمي إلى تحرير الأمم المحكومة من نير الأمم المسيطرة عليها . بل أنها كانت من نوع الثورات التي لا تستهدف شيئاً غير تخليص الناس من اعتساف الحكام .

ولا شك في أن الاوضاع الجغرافية ايضاً لعبت دوراً هاماً في انتهاء هذه الثورة إلى تكوين دولة جديدة : إذ من المعلوم أن امريكا منفصلة عن أوروبا وعن الجزر البريطانية انفصالاً جغرافياً ، بواسطة المحيط الاطلسي الفسيح . ولا حاجة إلى القول أن هذا الانفصال الجغرافي كان شديد الاثر في ذلك العهد ، لأن السفن التجارية لم تكن قد اخترعت بعد . فالمواصلة بين أوروبا وامريكا كانت تتم بواسطة السفن الشراعية ، فتستغرق عدة اسابيع ، تتعرض خلالها إلى شتى المشاكل والاحداث .

وعلى كل حال ، نستطيع أن نقول ، بناء على كل ما تقدم : إن انفصال الولايات المتحدة الامريكية عن المملكة البريطانية ، كان قد حدث في ظروف تاريخية وجغرافية خاصة ، فلا يمكن أن يتخذ دليلاً على عدم تأثير اللغة في تكوين القوميات ، وفي اتحاد الدول أو انفصالها .

ولكن . . . قد يقال : إذا كانت الولايات المتحدة الامريكية قد انفصلت عن المملكة البريطانية ، لمثل هذه الاسباب العارضة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر . . . فلماذا لم تعد وتتحد معها في القرن التاسع عشر ، بعد انتشار مبدأ القوميات ؟

إن جواب هذا السؤال سيتضح من الحقيقة الثانية التي اردت إلفات الانظار اليها .

والحقيقة الثانية التي يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار في هذا المضمار تتعلق بـ « لغة الولايات المتحدة الامريكية » :

فإن القول بأن الولايات المتحدة المذكورة انكليزية اللغة مثل بريطانيا العظمى لا ينطبق على حقائق الامور انطباقاً تاماً ، لأن الانكليزية لم تصبح اللغة البيتية لدى معظم سكان الولايات المتحدة الامريكية ، إلاّ بصورة تدريجية ، وفي وقت قريب نسبياً .

نظرة سريعة إلى تطور حدود الولايات المتحدة الامريكية وأحوال سكانها تكفي لإظهار هذه الحقيقة بكل وضوح وجلاء :

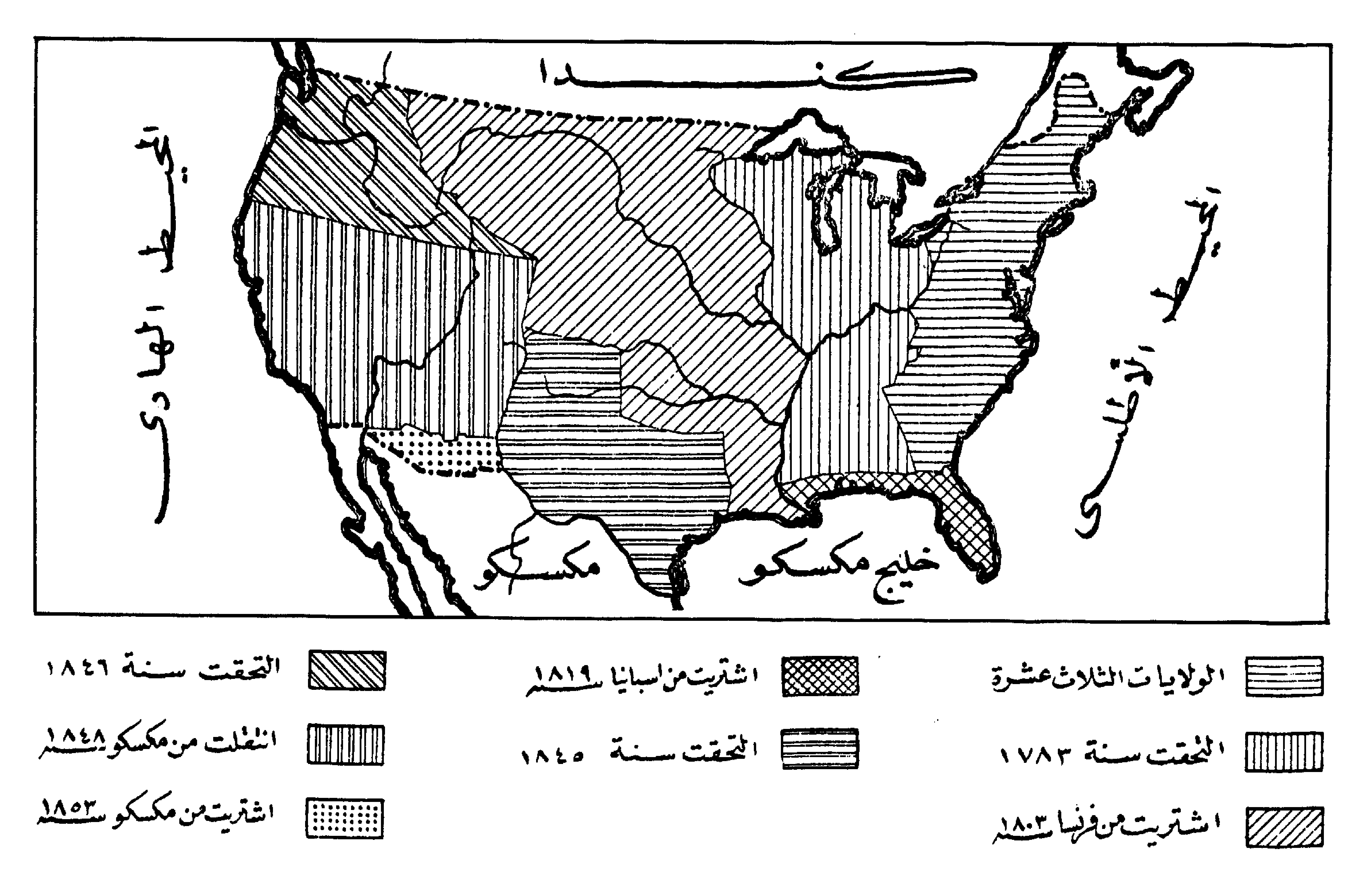
إن مجموع سكان الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٧٩٠ ـ أي بعد مرور أربعة عشر عاماً على اعلان الاستقلال ـ كان يقل عن أربعة ملايين : ٣,٩٢٩,٢١٤ ولكن هذا المجموع وصل ـ سنة ١٩٤٠ ـ إلى ١٣٤ مليوناً ، وذلك يعني : إنه أصبح ـ خلال مائة وخمسين عاماً ـ ثلاثة وثلاثين ضعف ما كان عليه في بادىء الأمر .

وبديهي أن هذا التزايد الهائل لم يكن نتيجة لتكاثر السكان عن طريق التناسل ، إنما كان نتج عن توسع رقعة الاراضي من ناحية ، وتوافد المهاجرين من ناحية اخرى .
فإن عدد الولايات المتحدة كان ١٣ عند اعلان الاستقلال ولكنه قد انضم اليها شيئاً فشيئاً ٣٥ ولاية اخرى .

وكانت الولايات المتحدة عند اعلان الاستقلال منحصرة بالأراضي الواقعة بين سواحل المحيط الاطلسي وبين جبال الآلفاني ولكن حدود هذه الولايات المتحدة أخذت تزحف نحو الغرب ، حتى بلغت في آخر الأمر سواحل المحيط الهادىء .

إن توسع حدود الولايات المتحدة بهذه الصورة ، قد تم بوسائل مختلفة ـ من الشراء إلى الاستيلاء والاستعمار ، والخريطة المدرجة في الصفحة التالية تبين مراحل هذا التوسع ، وتظهر الفرق العظيم بين ما كانت عليه الحدود عند اعلان الاستقلال ، وبين ما وصلت اليه خلال قرن من الزمان .

ومما يجب ملاحظته أن البلاد التي انضمت إلى الولايات المتحدة الامريكية بهذه الصور المختلفة لم تكن من المستعمرات الانكليزية ، مثل الولايات المتحدة الاولى . بل كانت فرنسية ، واسبانية ، ومكسيكية . . . نشأت في ظروف تختلف عن ظروف نشأة الولايات الاصلية . وكان الاختلاف يشمل اللغات ايضاً .


كندا
المحيط الهادى
المحيط الأطلسى
مكسكو
خليج مكسكو
الولايات الثلاث عشرة
التحقت سنة ١٧٨٣
اشتريت من فرنسا سنة ١٨٠٣
اشتريت من اسبانيا سنة ١٨١٩
التحقت سنة ١٨٤٥
التحقت سنة ١٨٤٦
انتقلت من مكسكو سنة ١٨٤٨
اشتريت من مكسكو سنة ١٨٥٣

ولكن اختلاف اللغات قد زاد بوجه خاص من جراء اختلاف البلاد التي نزح منها المهاجرون إلى الولايات المتحدة الامريكية بعد اعلان استقلالها .

ويتبين من الاحصاءات الرسمية أن مجموع المهاجرين الذين توافدوا على الولايات المتحدة المذكورة ـ من سنة ١٨٢٠ حتى سنة ١٩٤٠ أي : خلال مائة وعشرين عاماً ـ كان نحو ٣٨ مليوناً . واما عدد الانكليز بين هؤلاء المهاجرين فكان لا يزيد على العُشر الا قليلاً ، لأن مجموع هؤلاء كان ٤,٢٥٥,١٠٠ في حين أن مجموع النازحين من كل من المانيا ، وايطاليا ، وايرلندا . . كان يزيد على ذلك كثيراً .

ولزيادة الإيضاح ، ندرج فيما يلي مجموع المهاجرين الذين توافدوا على الولايات المتحدة الامريكية من أهم البلاد الأوروبية ، خلال هذه المدة :

المهاجرون من المانيا	٦,٠٢١,٩٥١
المهاجرون من ايطاليا	٤,٧١٩,٢٢٣
المهاجرون من ايرلندا	٤,٥٩١,١٠٠
المهاجرون من بريطانيا	٤,٢٥٥,١٠٠
المهاجرون من النمسا والمجر	٤,١٤٣,٧٧٥
المهاجرون من روسيا	٣,٣٤٩,٣٤١
المهاجرون من السويد	١,٢١٧,٤٤٨
المهاجرون من النورويج	٨٠٤,٨٥٢
المهاجرون من فرنسا	٥٩٤,٩٩٨

وأما مجموع المهاجرين الذين نزحوا من سائر البلاد الاوروبية إلى الولايات المتحدة الامريكية ـ من بولندا والدانمارك إلى البرتغال وسويسرا واليونان ـ فقد زاد على المليونين .

وفضلاً عن ذلك كله ، قد دخل الولايات المتحدة الامريكية ـ خلال المدة المذكورة ـ اكثر من مليون مهاجر من بعض الاقطار الآسيوية ـ كالصين واليابان والهند .

ولإعطاء فكرة أتم عن العناصر التي دخلت في تكوين الولايات المتحدة الأمريكية ، يجب أن نضيف إلى كل ذلك ، ملايين الزنوج الذين نقلوا إلى الولايات المذكورة من مختلف الأقطار الأفريقية (يبلغ عدد الزنوج في الولايات المتحدة إثني عشر مليوناً) .

ومن الطبيعي أن جميع هؤلاء المهاجرين كانوا يحملون معهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية لغاتهم الخاصة ، وتقاليدهم القومية ، ومشاعرهم التاريخية أنهم كانوا يتعلمون الانكليزية ، ويستعملونها في جميع معاملاتهم التجارية ومراجعاتهم الرسمية ، ومع هذا كانوا يرجعون إلى لغاتهم الأصلية في شؤونهم ومحاوراتهم البيتية .

وأما تأمرك المهاجرين إجتماعياً ، وتأنكلزهم لغوياً ، فما كان يتم إلا بعد مرور جيلين أو ثلاثة أجيال .

وإذا لاحظنا أن المهاجرة من البلاد المذكورة كانت تتم بصورة تدريجية ، وتتوالى بدون إنقطاع ، علمنا أن اللغات المختلفة التي كانت تدخل الولايات المتحدة مع المهاجرين ، ما كانت تترك محلها إلى اللغة الانكليزية إلا بعد مرور مدة طويلة وبتدرج كبير قبل أن يتم تأنكلز جماعة من المهاجرين القدماء ، كانت تتوافد على الولايات المتحدة جماعات جديدة من المهاجرين ، تديم حياة اللغات الأصلية في البيوت وفي المجتمعات الخاصة .

وربما كانت أوضاع الجاليات العربية في مختلف البلاد الأمريكية ، من أوضح الأدلة على ما قلناه آنفاً .

كلنا نعلم أن المغتربين العرب يتكلمون في بيوتهم وفي ما بينهم باللغة العربية . فلا تصبح الانكليزية اللغة البيتية عند هؤلاء المهاجرين ، إلا بعد مرور جيلين كاملين ، على أقل تقدير .

كما نعلم أنه قد ظهر بين الجاليات العربية التي استوطنت الأقطار الأمريكية ، أدباء وشعراء ، نشروا الجرائد والمجلات حتى أنهم أوجدوا مدرسة أدبية إشتهرت باسم « أدب المهجر »، ولعبت دوراً هاماً في تطور الأدب العربي وتقدمه .

وطبيعي أن ما حدث لمهاجري العرب في هذا المضمار ، كان يحدث للمهاجرين الأوروبيين . وكثيراً ما كان يظهر ذلك بشدة أعظم ، عند صنوف المهاجرين الذين كانوا أكثر عدداً بكثير من مهاجري العرب ، وأرقى ثقافة منهم ، وأشد تضامناً .

ولذلك كله ، نستطيع أن نقول : إن الولايات المتحدة الأمريكية كانت بمثابة بوتقة صبت فيها جماعات كبيره من قوميات مختلفة ولغات متنوعة على توالي السنين . وأما تمازج هؤلاء وإنصهارهم التام ،فلم يتم إلا شيئاً فشيئاً .

فلا يجوز لنا أن نقول عن الولايات التحدة الأمريكية ، أنها « انكليزية اللغة ».

إن هذه الحقيقة تتجلى بوضوح أشد عندما نستعرض الاحصاءات المتعلقة بأوائل

القرن الذي نعيش فيه الآن : لقد تدفق المهاجرون من مختلف البلاد الأوروبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ـ منذ بدء القرن الحاضر حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ـ بمعدل مليون كل سنة . وإن مجموع المهاجرين الذين إنتقلوا إلى الولايات المذكورة ـ من ١٩٠١ حتى سنة ١٩١٤ كان نحو ثلاثة عشر مليوناً : ١٢٨٩٩٧٠١ .

ولا حاجة إلى القول أن هؤلاء يجب أن يعتبروا من المعاصرين لأن طائفة كبيرة منهم لا تزال على قيد الحياة . كما أن القسم الأعظم من أولاد هؤلاء لا يزالون يعيشون الآن .

ويتبين من إحصاءات سنة ١٩٣٠(*) ، أن عدد الامريكان البيض المولودين خارج الولايات المتحدة كان ٤٠٥ ، ٩٨٣ ، ١٣ وأما عدد المولودين من أسر غير أمريكية الأصل فكان يناهز ضعف هذا العدد .

كما يظهر من الاحصاءات المذكورة أن مجموع سكان الولايات المتحدة الذين لم يكونوا انكليزيي اللغة كان ـ في السنة المذكورة نحو خمسة وعشرين مليوناً .

وكانت لغة نحو خمسة ملايين من هؤلاء الألمانية ولغة نحو أربعة ملايين منهم الايطالية ، ولغة نحو مليونين الاسبانية .

ـ ٣ ـ

يتبين من كل ما تقدم ، إن سكان الولايات المتحدة الأمريكية قد تكوّنوا تكوّناً خاصاً ، خلال مدة قرن وثلاثة أرباع القرن ـ تحت ظروف استثنائية ، لا مثيل لها في سائر أنحاء العالم .

فليس من المعقول أن نستشهد بقضية إنفصال الولايات المذكورة عن المملكة البريطانية لتبرير بقاء الأمة العربية منقسمة إلى دويلات عديدة .

فإن مما لا شك فيه ، إن أحوال البلاد العربية تختلف عن ظروف الولايات المذكورة إختلافاً كبيراً ، من وجوه عديدة :

(*) ومما تجدر الاشارة إليه أن الولايات المتحدة الأمريكية غيرت سياستها المتعلقة بالمهاجرة تغييراً جوهرياً ، بعد هذا التاريخ ، بوجه خاص . فإنها بعد أن كانت تسعى إلى إجتذاب المهاجرين بشتى الصور والأساليب صارت تقيد الهجرة بقيود شديدة . وحددت المقدار الذي ستقبله كل سنة ، بالنسبة إلى كل قومية على حدة وذلك بناء على تجاربها وأبحاثها السابقة ، مع ملاحظة مبلغ استعداد كل قومية للاندماج السريع أو لمقاومة الاندماج .

إن البلاد العربية متحدة اللغة منذ قرون عديدة . ولها تاريخ مشترك طويل ، وأفكارها متصلة بعضها ببعض إتصالاً جغرافياً تاماً ، فلا يوجد بينها فاصل يشبه المحيط الأطلسي الفسيح الذي يفصل أمريكا عن أوروبا .

وخلاصة القول : لا يوجد في أحوال البلاد العربية ما يماثل العوامل التي أدت إلى إنفصال الولايات المتحدة عن المملكة البريطانية ، والتي استوجبت إستمرار هذا الانفصال .

فإتخاذ تاريخ هذه الولايات ذريعة لمعارضة الفكرة القائلة بوحدة الأمة العربية ، وللحيلولة دون الدعوة إلى توحيد البلاد العربية . . . لا يتفق مع العقل والمنطق بوجه من الوجوه .

هذا ، وإني أستغرب كل الاستغراب ، سلوك المعارضين الذين يحاولون أن يستخرجوا من أحوال الولايات المتحدة الأمريكية وتاريخها درساً في تبرير الانفصال ، دون أن يلتفتوا إلى الدروس العديدة والهامة التي تتدفق من تلك الأحوال وذلك التاريخ في الاتحاد .

لأني أعتقد أن تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية من أحسن الأمثلة على مكافحة عوامل التفرقة ، ومن أقوى الأدلة على فوائد الاتحاد : بلاد واسعة الأرجاء ، متنوعة الأقاليم ، تمتد من سواحل المحيط الأطلسي إلى سواحل المحيط الهادي . بلاد مسكونة بعشرات الملايين من النفوس الآتين من مختلف أقطار العالم ، حاملين معهم لغات مختلفة وتقاليد متنوعة ونزعات متضاربة . ومع ذلك فقد استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تكوّن من جميع هذه العناصر في جميع تلك البلاد ، أمة متضامنة ، تحت راية واحدة .

ولا شك في أن أهم الدروس التي يجب أن تستخلص من مثال الولايات المتحدة الأمريكية ، هو هذا الاتحاد : الجهود العظيمة التي بذلت لضمان هذا الاتحاد ، والقدرة الهائلة التي نتجت عن هذا الاتحاد .

فلا أدري لماذا يريد البعض من كتّابنا ومفكرينا ، أن يتوقفوا عند الانفصال الذي حدث في بداية تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ، ولا يلتفتوا إلى الحركات والأعمال التوحيدية الهامة التي تتجلى في صحائف ذلك التاريخ ؟

مثال أمريكا اللاتينية

- ١ -

إن الحقائق التي سردناها آنفاً عند مناقشة مثال الولايات المتحدة الأمريكية ، تغنينا عن إطالة البحث في أمر أمريكا اللاتينية . فإن سكان هذا القسم من القارة الأمريكية أيضاً قد تكوّنوا تكوّناً خاصاً ، تحت ظروف إستثنائية جداً ، تشبه ظروف تكوّن سكان الولايات المتحدة الأمريكية ، من وجوه عديدة :

لقد توافد على أمريكا الوسطى والجنوبية أيضاً ، ملايين من الرواد والمهاجرين ، من مختلف أنحاء العالم ، ولا سيما من مختلف أقطار القارة الأوروبية . وتوالت هذه المهاجرة منذ إكتشاف تلك البلاد بدون إنقطاع . واشتدت بوجه خاص بعد إستقلالها عن إسبانيا والبرتغال ـ الذي تمّ بين سنة ١٨١٠ و ١٨٥٠ ـ واستفحل بكل معنى الكلمة منذ بداية هذا القرن . . .

فما قلناه آنفاً عن الولايات المتحدة الأمريكية في هذا المضمار ينطبق على أمريكا اللاتينية أيضاً تمام الانطباق .

ومما تجدر الاشارة إليه ، إن تركيب السكان في أمريكا اللاتينية صار أشد تعقيداً منه في الولايات المتحدة الأمريكية وذلك من جراء إختلاط المهاجرين الأوروبيين بالسكان الأصليين .

في الولايات المتحدة الأمريكية ، لم يلعب الهنود الحمر دوراً يستحق الذكر في تركيب السكان . لأن الأوروبيين الذين إستعمروا تلك البلاد واستوطنوها ، كانوا يهاجرون مع أسرهم وزوجاتهم ، فلم يضطروا إلى مخالطة نساء الهنود . وأعمال

الاستعمار والاستيطان هناك أدت إلى إفناء القسم الأعظم من السكان الأصليين ، وحصرت بقيتهم الباقية في مناطق محدودة جداً في بعض الولايات .

وقد اهتمت الولايات المتحدة الأمريكية بمبدأ عدم الاختلاط بالسكان الأصليين إهتماماً بالغاً ، وسنت القوانين التي تحظر زواج السكان البيض بالهنود الأحمر ، وتعتبره باطلاً حتى أن القوانين الموضوعة في بعض الولايات اعتبرت الاتصال الجنسي بنساء الهنود ـ ولو كان بدون زواج ـ من الجرائم التي تعرض مرتكبيها إلى العقاب .

ولذلك كله لم يتكوّن في الولايات المتحدة الأمريكية طبقة من الهجناء .

ولكن الأمور سارت سيراً مخالفاً لذلك كل المخالفة في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية : فإن الأوروبيين الذين استعمروا تلك البلاد واستوطنوها كانوا ـ بوجه عام ـ من المغامرين الجشعين الذين لا يفكرون في شيء غير الثراء الفاحش السريع . فما كانوا يستصحبون معهم نساءهم خلال هجرتهم ، فيضطرون إلى التزوج بنساء السكان الأصليين ، أو يعاشرونهن معاشرة الأزواج ؛ وينجبون منهن عدداً كبيراً من الأطفال . وكثيراً ما كانوا يعودون إلى بلادهم ـ حاملين معهم ما كانوا حصلوا عليه من ثروة طائلة ـ ويتركون وراءهم جيلاً من الهجناء .

ولا حاجة إلى القول : إن الأطفال الذين يتولدون من آباء أوروبيين وأمهات هنديات أمريكيات ـ تحت هذه الظروف ـ كانوا ينشأون ويترعرعون في أحضان أمهاتهم . ولهذا السبب كانوا يتأثرون من عادات الهنود ونزعاتهم ولهجاتهم أشد التأثر وأعمقه .

إن هذه الأحوال الخاصة أدت إلى تكوين صنف خاص من السكان .

وإذا لاحظنا إن السكان الأصليين كانوا يختلفون عن المهاجرين الأوروبيين إختلافاً هائلاً ـ من حيث الأوصاف الرسمية والجثمانية ومن حيث النزعات العقلية والاجتماعية ومن حيث المستويات الحضارية ـ قدّرنا عظم النتائج التي نجمت عن هذا التخالط السريع والتصالب الواسع النطاق .

في الواقع أن زواج المهاجرين الأوروبيين من السكان الأصليين قل كثيراً منذ قرن من الزمان . إلاّ أن زواجهم بالهجينات ، وزواج الهجناء فيما بينهم ، قد عم واستفحل ، فأصبح الهجناء يؤلفون الأكثرية الساحقة من السكان .

ويظهر من الاحصاءات الرسمية الأخيرة ، أن مجموع السكان في أمريكا اللاتينية يبلغ ١٢٥ مليوناً . وينقسم هؤلاء إلى العناصر الأساسية التالية :

٧٠ مليوناً هجناء (من إختلاط الأوروبيين بالهنود الأمريكيين)
٢٠ مليوناً أوروبيون .
١٩ مليوناً هنود ـ أمريكيون .
١٦ مليوناً زنوج وهجناؤهم .

ويلاحظ من ذلك أن الأوروبيين الخلَّص يقلون عن سدس مجموع السكان .

- ٢ -

ومما يلفت النظر : أن نسبة كل واحد من هذه العناصر الأساسية إلى مجموع السكان تختلف إختلافاً كبيراً من قطر إلى قطر ، ومن دولة إلى دولة في أمريكا اللاتينية .

فإن نسبة المهاجرين الأوربيين إلى مجموع السكان تتراوح بين ٩٥ في المائة و ٦ في المائة : يؤلف المهاجرون الأوروبيون ٩٥ في المائة من مجموع السكان في الأرجنتين ، و ٩٠ في المائة في كوستاريكا ولكن نسبتهم إلى مجموع السكان تنزل إلى ٥٠ في المائة في البرازيل والشيلي ، وإلى ٢٥ في المائة في كولومبيا ، وإلى ١٠ في المائة في كل من المكسيك والأكوادور وفنزويللا وبانـاما ، وباراغواي ، ولا تتجاوز إلى ٧ في المائة في غواتيمالا ، و ٦ في المائة في كل من هوندوراس ونيكاراغوا .

وأما نسبة الهجناء إلى مجموع السكان فتتراوح بين ٧٥ في المائة وبين ٤ في المائة . إنهم يؤلفون ٧٥ في المائة من مجموع السكان في باراغواي ونيكاراغوا ، و ٧٠ في المائة في السان سالفادور ، و ٦٠ في المائة في المكسيك و ٥٣ في المائة في كل من غواتيمالا وبيرو ، و ٢٥ في المائة في بوليفيا ، و ١٤ في المائة في البرازيل ، و ١٠ في المائة في كوستاريكا و ٤ في المائة فقط في الأرجنتين .

وأما الهنود الخلّص ، فإنهم يؤلفون ٦٠ في المائة من مجموع السكان في بوليفيا ، و ٥٥ في المائة في غواتيمالا ، و ٥٠ في المائة في البيرو ، و ٣٠ في المائة في المكسيك وفي الأوروغواي ، و ٢٠ في المائة في باراغواي . ولكن هذه النسبة تنزل إلى ٥ في المائة في نيكاراغوا ، وإلى ٢ في المائة في البرازيل ، و ١ في المائة في الأرجنتين .

أما نسبة الزنوج وهجنائهم إلى مجموع السكان ، فإنها نحو ٩٣ في المائة في كوبا ، و ٣٤ في البرازيل ، و ٣٠ في المائة في كل من بانـاما وكوستاريكا ، و ٢٥ في فنزويللا ، و ١٤ في المكسيك ، و ١٠ في البيرو ، و ٨ في كولومبيا .

ولا يوجد هنود ـ خلّص أو هجناء في كوبا وهايتي وأوروغواي ، ولا يوجد زنوج في الأرجنتين وبوليفيا والمكسيك وباراغواي ، وسان سالفادور .

إن الجدول المدرج في الصفحة التالية يوضح ترتيب السكان في أهم دول امريكا اللاتينية ، ويظهر للعيان مبلغ إختلاف هذه الدول من حيث عناصر السكان .

ويلاحظ من أرقام الجدول المذكور ، إن الأوروبيين المستوطنين في البلاد التي تسمى باسم « أمريكا اللاتينية » ، لم يأتوا كلهم من بلاد لاتينية اللغة ، بل يوجد بينهم عدد لا يستهان به من المهاجرين الوافدين من بلاد غير لاتينية .

ففي البرازيل مثلاً يؤلف الأوروبيون ٥٠ في المائةمن مجموع السكان . إلا أن عدد الذين هاجروا من بلاد لاتينية اللغة لا يتجاوز الـ ٣٠ في المائة .

وفي المكسيك يؤلف الأوروبيون ١٠ في المائة من مجموع السكان . وقد هاجر ٦ في المائة منهم من بلاد لاتينية اللغة ، و ٤ في المائة منهم من بلاد غير لاتينية اللغة .

ومن المعلوم أن البلاد التي تعتبر لاتينية اللغة هي : اسبانيا ، والبرتغال ، وإيطاليا ، ورومانيا . فلا حاجة إلى القول ، إن نسبة الاسبان في المكسيك ، ونسبة البرتغال في البرازيل ، تقل كثيراً عن المقادير المذكورة آنفاً .

ويظهر من كل ذلك ، إن هذه الأقطار الأمريكية ـ على الرغم من تسميتها باللاتينية ، وعلى الرغم من نسبة معظمها إلى الاسبانية وبعضها إلى البرتغالية ـ بعيدة جداً عن أن تكون حقيقة إسبانية ، أو برتغالية ، أو لاتينية .

ـ ٣ ـ

أعتقد أن التفاصيل المسرودة آنفاً ـ في هذا البحث وفي البحث السابق ـ تظهر لنا بكل وضوح ، العوامل التاريخية والجغرافية والاجتماعية الكثيرة التي سببت إنفصال هذه الأفكار الأمريكية عن اسبانيا والبرتغال ، كما تظهر العوامل التي حالت دون إتحادها لتكوين دولة موحدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية .

كما أنها لا تترك أدنى مجال للشك في أن هذه الأحوال والأحداث الخاصة ، لا تدل مطلقاً على عدم تأثير اللغة في تكوين الدول والأمم ، فلا تبرر بوجه من الوجوه مزاعم الذين يستندون إليها لاستبعاد فكرة الاتحاد بين البلاد العربية .

أنا لا أرى لزوماً ـ بعد هذه التفاصيل ـ لإطالة هذا البحث بتعداد أوجه الخلاف بين أحوال أمريكا اللاتينية وبين خصائص البلاد العربية .

ومع هذا أود أن أسأل المعارضين ـ بهذه المناسبة ـ :

البلد	مجموع السكان بالملايين	النسبة المئوية إلى مجموع السكان						الأميون بالنسبة إلى مجموع السكان (٪)
		مهاجرون من بلاد		هنود امريكيون		زنوج		
		لاتينية اللغة	غير لاتينية اللغة	خلّص	هجناء	خلّص	هجناء	
البرازيل	٤٨,١	٣٠	٢٠	٢	١٤	١٤	٢٠	٧٠
المكسيك	٢٥,٧	٦	٤	٣٠	٦٠	-	-	٦٠
الارجنتين	١٨	٦٠	٣٥	١	٤	-	-	٢٠
كولومبيا	١٠,٥	٢٠	٥	١٨	٤٩	٣	٥	٦٠
بيرو	٧,٩	١٠	٣	٥٠	٣٥	٢	-	٧٠
شيلي	٥,٦	٣٠	٢	١٠	٤٠	-	-	٢٥
كوبا	٥,٢	٥٠	٢٠	-	-	٢٠	١٠	٣٠
فنزويلا	٤,٥	٦	٤	٢٠	٤٥	٥	٢٠	٨٠
بوليفيا	٣,٨	٩	٦	٦٠	٢٥	-	-	٧٥

لماذا يريدوننا أن نقتدي بدول أمريكا اللاتينية ولا يريدوننا أن نقتدي بـالولايـات المتحدة الأمريكية ؟

لـماذا يسعـون وراء دروس الفـرقـة والاختـلاف ، ويصمّـون آذانهم عن دروس الوحدة والاتحاد ؟

مثال بلجيكا

من المعلوم أن سكان بلجيكا يتألفون من طائفتين أساسيتين : الفالون والفلامان ، ويتكلم الفالون باللغة الفرنسية ، والفلامان بلغة قريبة من الهولندية .

فمن الطبيعي أن يخطر على البال ـ من الوهلة الاولى ـ هذا السؤال :

لماذا لم تنشطر بلجيكا إلى شطرين ، فينضم الفالون إلى فرنسا والفلامان إلى هولندا ، وفقاً لعلائقهم اللغوية ؟

إذا بحثنا واستقصينا « أحداث التاريخ السياسي ، وحقائق الجغرافيا البشرية » في بلجيكا ، علمنا أن هناك نوعين من العوامل التي حالت ـ ولا تزال تحول ـ دون حدوث مثل هذا الانشطار والانضمام :

النوع الأول من هذه العوامل يتعلق بالأحوال الخارجية ، والنوع الثاني يتصل بالأحوال الداخلية .

العوامل الخارجية هي : اتجاهات السياسة الدولية حول الشؤون البلجيكية .

وأما العوامل الداخلية ، فهي : تشابك اللغات وتداخلها في مختلف أنحاء بلجيكا .

- ١ -

من المعلوم أن أوروبا كانت مسرحاً لتنازع النفوذ والسيطرة بين فرنسا وانكلترا ، طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بوجه خاص .

كانت فرنسا أقوى دولة برية ، وانكلترا أقوى دولة بحرية . وكانت انكلترا تحسب ألف حساب لاحتمال قيام الفرنسيين بالغارة على بلادها ، ولذلك جعلت مبدأ « عدم إفساح المجال لتوسع سيطرة الفرنسيين على سواحل بحر المانش وبحر الشمال » أسّ الأساس في بناء سياستها الخارجية .

إن خطوط هذه السياسة كانت قد ارتسمت بكل وضوح منذ القرن الثامن عشر : لقد كتب سونلي في مذكراته ، أن ملك بريطانيا العظمى قال له يوماً « إذا حاول أخي ملك فرنسا الاستيلاء على بلجيكا ، فأنا لا أرضى بذلك ، فاضطر إلى معارضته بكل قواي ، وأظن أنه هو أيضاً يفعل نفس الشيء ، إذا ما حاولت أنا الاستيلاء عليها . فمن الخير لنا أن نترك تلك البلاد على حالها ، فلا تكون لا لي أنا ولا لفرنسا » .

وهذه الخطة أصبحت بعد ذلك ، بمثابة الابرة الموجهة لسفينة السياسة البريطانية : تلك البلاد ، يجب أن تبقى تحت حكم دولة صغيرة . ولا بأس إذا دخلت تحت حكم اسبانيا ، أو تحت حكم النمسا . لأن هاتين الدولتين منفصلتان عنها جغرافياً ، فحكم إحداهما عليها لا يكوّن خطراً على أمن الجزر البريطانية . وأما إذا دخلت تحت سيطرة فرنسا ، فتتغير الاحوال تماماً . لأن فرنسا متصلة بها جغرافياً ، وسيطرتها عليها تجعل جميع السواحل المواجهة لبريطانيا العظمى مسرحاً لنياتها العسكرية ـ ولذلك تضعف « المناعة الطبيعية » التي تحمي الجزر البريطانية من الاستيلاء .

من المعلوم أن فرنسا استولت على بلجيكا خلال ثورتها العظمى وفي عهد امبراطورية نابوليون . ونابوليون كان استفاد من سواحلها لإحكام « الحصار البري » الذي أعلنه على انكلترا .

ولهذا السبب ، عندما قضت انكلترا ـ بمساعدة حليفاتها ـ على امبراطورية نابوليون ، أعادت بلجيكا إلى وضعها السابق وفرضت عليها أن تكون دولة محايدة .

وعندما انفصلت بلجيكا عن هولندا ـ سنة ١٨٣٠ ـ أسرعت انكلترا إلى الاعتراف بهذا الانفصال ، ثم اكدت مبدأ حيادها ، وجعلت هذا الحياد مضموناً بعهود دولية .

ومن المعلوم ايضاً ، أن نابوليون الثالث كان ينوي الاستيلاء على بلجيكا . وحاول خلال مساوماته مع بسمارك، أن يضمن موافقة بروسيا على ذلك .

وعندما انتشر خبر هذه المساومة ، هاجت انكلترا وماجت وأعلنت على لسان وزير خارجيتها ورئيس وزرائها ، إنها تعارض احداث اي تغيير كان في الاوضاع

القائمة على السواحل المواجهة لبريطانيا العظمى .

فقد صرح اللورد بالمرستون بأن حكومته تعارض نيات نابوليون بشدة ، وتدافع عن استقلال بلجيكا بقوة .

كما قال اللورد كورزون : إن مصلحة بريطانيا العظمى تقضي بأن تبقى السواحل المذكورة ـ من دونكرك إلى اوستاند ـ في أيدي دولة أو دول صغيرة ، فلا تنتقل إلى حكم دولة قوية .

ومما لا شك فيه أن هذه القضية كانت من جملة العوامل التي جعلت انكلترا تنظر بنظر الارتياح إلى انكسار الفرنسيين في حرب السبعين ، تحت هجمات البروسيين .

يظهر من كل ذلك بكل وضوح وجلاء ؛ أن انكلترا بذلت جهوداً متوالية للحيلولة دون توسع السواحل الفرنسية ، بانضمام اي جزء من اجزاء بلجيكا اليها . وبقيت بلجيكا بمثابة « الدولة العازلة état tampon » بين فرنسا وبين انكلترا .

في الواقع ، أن التنازع البريطاني الفرنسي قد خف كثيراً منذ اوائل القرن الحاضر . إلا أنه ظهر في الميدان السياسي ـ بعد ذلك ـ تنازع جديد ، هو التنازع الفرنسي الالماني ، فلا حاجة إلى القول ، بأن هذا التنازع ايضاً عمل على ابقاء ما كان على ما كان ، في هذه المنطقة الحساسة من القارة الاوروبية .

ـ ٢ ـ

إن هذه السياسة الدولية ـ الناجمة عن الاوضاع الجغرافية ـ كانت تعمل على الدوام بجانب عوامل داخلية منبعثة من تشابك اللغات وتداخلها في مختلف انحاء المملكة البلجيكية .

فإن الجماعات التي تتكلم الفرنسية والفلامندية ، تتداخل من مختلف القرى والمدن والنواحي ، تداخلاً لا يترك مجالاً لشطر البلاد حسب أوضاعها اللغوية . فإن هناك مدناً فرنسية محاطة بقرى فلامندية ، وبعكس ذلك مدن فلامندية محاطة بقرى فرنسية . وهناك قرى ومدن كثيرة تجمع طوائف من اللغتين المذكورتين ، فضلاً عن اللغة الالمانية التي يتكلم بها أقلية من السكان ، في بعض المناطق المحدودة .

في الواقع ، لا يصعب رسم خط يفصل بين المنطقة التي اكثرية سكانها فلامندية اللغة ، والمنطقة التي اكثرية سكانها فرنسية اللغة . ولكن هذا التقسيم ، يكون تقسيماً مبنياً على الاكثرية النسبية ، فيترك في طرفي الخط كثيراً من المدن والقرى التي يتكلم سكانها اللغة الاخرى .

ولاظهار مدى هذا التشابك ، يجدر بنا أن نذكر بعض الأرقام الاحصائية :

لقد نشرت الحكومة البلجيكية ـ سنة ١٩٤٧ ـ احصائية تصنف السكان حسب اللغات التي يتكلمونها : أعداد الذين لا يعرفون غير الفرنسية ، والذين لا يعرفون غير الفلاماندية ، والذين لا يعرفون غير الالمانية ، والذين يعرفون اللغتين ولكنهم يتكلمون بالفرنسية اكثر من الفلامندية ، أو ـ بعكس ذلك ـ يتكلمون بالفلاماندية اكثر من الفرنسية ، وذلك في كل ناحية ومدينة وقرية .

إن ارقام الاحصائية المذكورة تظهر وجه بلجيكا الحقيقي بكل وضوح ، وتبين مدى تشابك اللغات فيها بكل جلاء :

فإن ايالة فلاندر الغربية ـ مثلاً ـ ، تعتبر من الايالات الفلاماندية ، لأن اكثرية سكانها يتكلمون اللغة المذكورة : فإن مجموع سكان هذه الايالة يقرب من مليون ، نحو ٦٩٣,٠٠٠ منهم لا يتكلم غير الفلاماندية ، ونحو ١٩٧,٠٠٠ منهم يتكلمون اللغتين الفلاماندية والفرنسية . والبقية لا تعرف غير الفرنسية .

ولكننا إذا بحثنا في تفاصيل الأمر ، وجدنا أن هذه الأيالة تضم كثيراً من المدن والقرى التي يتكلم اكثرية سكانها باللغة الفرنسية .

مثلا : مدينة Dattiynies يبلغ مجموع سكانها ٥٩٣٥ وبين هؤلاء ٥٦ في المائة لا يعرف غير اللغة الفرنسية ، و ٣٥ في المائة يعرف اللغتين . وبين الصنف المذكور ، نحو ٨٠ في المائة يتكلم بالفرنسية اكثر من الفلاماندية ، و ٢٠ في المائة فقط يتكلم بالفلاماندية أكثر من الفرنسية .

إن تشابك اللغات واختلاطها ، يظهر حتى في بعض القرى الصغيرة التي يقل سكانها عن الالف :

مثلاً : قرية Espierre مجموع سكانها ٩٠٠ ، وبين هؤلاء ٢٠ في المائة من لا يعرف غير الفرنسية ، و ٦٣ في المائة من يتكلم اللغتين . وبين الذين يتكلمون اللغتين ٦٠ في المائة يتكلمون بالفرنسية أكثر من الفلاماندية ، و ٤٠ في المائة يتكلمون بالفلاماندية اكثر من الفرنسية .

ومما يلفت النظر أن عاصمة بلجيكا ـ مدينة بروكسل نفسها ـ تعطي مثالاً بارزاً لتشابك اللغات . فإننا نفهم من احصائية منشورة قبل الحرب العالمية الاولى أن ٢٨ في المائة من سكان المدينة المذكورة كان لا يعرف غير الفرنسية ، و ١٧ في المائة منهم لا يعرف غير الفلاماندية ، و ٢٥ في المائة منهم يعرف اللغتين ولكنه يتكلم بالفرنسية أكثر

من الفلاماندية ، و ٣٠ في المائة منهم يعرف اللغتين ولكنه يتكلم بالفلاماندية اكثر من الفرنسية .

- ٣ -

أعتقد أن الحقائق التي سردناها آنفاً لا تترك مجالاً للشك في أن هذه العوامل الداخلية والخارجية - أي : الاوضاع الناجمة عن تنازع الدول من ناحية وتشابك اللغات من ناحية - ، هي التي تضافرت على ابقاء بلجيكا على حالتها الحاضرة ، وجعلت سكانها يشعرون بوجوب التعايش تحت راية واحدة ، كما حملت حكومتها على اعتبار اللغتين رسميتين في وقت واحد ، وعلى السعي وراء ضمان العدل والتوازن بين الجماعتين اللغويتين .

ولا أراني في حاجة إلى القول - بعد هذه التفاصيل - أن أحوال البلاد العربية ، لا تشبه أوضاع المملكة البلجيكية بوجه من الوجوه . والحجة التي يحاول استخلاصها معارضو الوحدة العربية عن أوضاع المملكة المذكورة ، انما هي حجة واهية بكل معنى الكلمة .

مثال سويسرا

- ١ -

إن ما قلناه آنفاً عن بلجيكا ينطبق على سويسرا بمقياس أوسع . ذلك لأنه تتلاقى وتتداخل فيها ثلاث لغات كبيرة ، وتحيط بها وتتنافس حولها أربع دول عظمى .

دولة اتحادية صغيرة . لا تزيد مساحتها على ربع مساحة الجمهورية السورية ، يقدر مجموع سكانها بنحو خمسة ملايين . إلّا أن ٧٤ في المائة منهم يتكلم الالمانية ، و ٢١ في المائة يتكلم الفرنسية ، و ٤ في المائة يتلكلم الايطالية و ١ في المائة منهم يتكلم لغة محلية ، تسمى « الرومانس » وتقترب من اللاتينية القديمة .

لم تتفكك أوصال هذه الدولة الاتحادية الصغيرة ، كما تفككت أوصال الامبراطورية النمساوية والسلطنة العثمانية ، وذلك على الرغم من تعدد لغاتها وتنوع قومياتها ، وعلى الرغم من شدة تيارات القومية التي عصفت بمعظم البلاد المجاورة لها ، وغيرت خرائطها السياسية تغييراً كلياً .

لماذا ؟

لأن سلسلة طويلة من العوامل والظروف الداخلية والخارجية ـ الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية ـ تضافرت على ابقائها على حالها .

فإن خصائص جغرافيتها الطبيعية والبشرية جعلت من المتعذر تقسيمها ، تقسيماً يتلاءم مع لغات سكانها ولا يثير الخصام بين الدول الكبيرة المحيطة بها . فاتفقت كلمة الدول المذكورة ورجال سياستها ، على أن بقاء سويسرا على حالتها الخاصة ، كدولة

عازلة محايدة ، أوفق لمصالح هذه الدول ، فلم تقدم دولة من الدول المذكورة على الاستيلاء عليها ولا طالبت بتقسيمها بين جيرانها .

وقد نشأ في سويسرا ـ بتأثير هذه الأحوال الخاصة ـ نوع خاص من نظام الحكم هيأ لها سبل البقاء ، على الرغم من اختلاف لغات سكانها ، لأن هذا النظام جمع بين فدرالية ممعنة في المرونة ، ولا مركزية ادارية واسعة النطاق ، وديموقراطية تذهب إلى أقصى حدود الشعبية . فلا تترك مجالاً لتغلب فئة على اخرى ، وتيسر للجميع وسائل التعايش الحر ، دون أن تضطر فئة من الفئات إلى تضحية شيء من خصائصها . . .

وكل ذلك أوجد في سويسرا اوضاعاً شاذة ، لا تشبه اي وضع من الاوضاع القائمة في اية بقعة من بقاع العالم .

إن التفاصيل المختصرة التالية توضح هذه الاوضاع ، وتظهر هذه الخصائص إلى العيان .

ـ ٢ ـ

من المعلوم أن سويسرا بلاد جبلية ، تضم أهم مسالك الالب وقسماً غير قليل من جبل الجورا ، والهضبة التي تقع بينهما .

تنبع منها اربعة انهر ، تجري مياه كل واحد منها في اتجاه يختلف عن اتجاه غيره نحو الشرق والغرب والجنوب ، نهر الراين الذي يقطع المانيا ويصب في بحر الشمال ، ونهر الرون ، الذي يقطع فرنسا ويصب في البحر الأبيض المتوسط ، ونهر تسين الذي يعتبر من أهم روافد نهر بو ، الذي يقطع شمال ايطاليا ويصب في بحر الادرياتيك .

إن منابع هذه الأنهر الثلاثة ـ التي تجري في هذه الاتجاهات المختلفة وتقطع هذه المسافات الطويلة خارج سويسرا ، في بلاد المانية وفرنسية وايطالية ـ تقع كلها في منطقة صغيرة من جبال سان غوتا : فإن المسافة التي تفصل هذه المنابع الثلاثة بعضها عن بعض لا تتجاوز العشر كيلو مترات .

إن اوضاع هذه الانهر واتجاهاتها تبين لنا بوضوح اتجاهات الجبال السويسرية ، وتؤيد أقوال الجغرافيين الذين يعتبرون سويسرا بمثابة « سُرَّة التضاريس الاوروبية » ، كما أنها توضح لنا لماذا صارت سويسرا ملتقىً لثلاث لغات عظيمة ـ هي التي تمثل اهم الثقافات الاوروبية .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن هذه اللغات الثلاث تتلاقى في البلاد السويسرية ، كما تتقارب فيها منابع الأنهر المذكورة .

ومما تجب ملاحظته ، أن الجبال في سويسرا كثيرة الفروع ومعقدة الشعاب ، يقطع سفوحها المتشابكة كثير من الوديان العميقة ، التي تحتضن عدداً كبيراً جداً من البحيرات الكبيرة والصغيرة .

ولا حاجة إلى القول بأن كثرة البحيرات تدل على كثرة المناطق « شبه المقفلة » التي لا يتصل بعضها ببعض ، إلا بمضايق عالية ووعرة .

ولهذاالسبب ، إنقسم سكان هذه الجبال إلى جماعات صغيرة تعيش كل واحدة منها في منطقة خاصة بها ، شبه منطوية على نفسها ، ومستقلة عن غيرها .

وعندما شعرت هذه الجماعات بضرورة التآزر والتكتل للمحافظة على إستقلالها ، سلكت سبيل التحالف الحر ، المبني على الاحترام المتبادل الخالي من كل أنواع النزوع إلى التسيطر .

ولا حاجة إلى القول ، أن سياسة الحياد التي سارت عليها سويسرا ، والتي ضمنتها لها المواثيق الدولية ، والتي لم تقدم على الاخلال بها أية دولة من الدول المجاورة لها ، منذ مدة طويلة ـ ساعدت على نشوء نظام الحكم في سويسرا نشوءاً سوياً ، دون أن يتعرض إلى تعقيدات واختلاطات ناجمة عن التأثيرات الخارجية .

فقدتكونت في سويسرا ، بنتيجة التطورات التاريخية ، دولة إتحادية ، تتألف من ٢٥ مقاطعة تعرف باسم الـ « كنطون » Canton .

يتولى الاتحاد السويسري شؤون السياسة الخارجية والدفاع الوطني وبعض الشؤون المتعلقة بالمواصلات ، ويترك لكل « كنطون » الحرية التامة في تصريف شؤونه العامة كما يشاء .

فأصبح لكل كنطون من الكنطونات السويسرية دستور (قانون أساسي) خاص به ، إختاره هو لنفسه ، كما أصبح لكل كنطون قوانين وأنظمة خاصة قررها مجلسه التمثيلي وفقاً لأحكام دستوره ، أو ارتضاها الشعب مباشرة عن طريق تصويت عام اشترك فيه جميع السكان .

فضلاً عن ذلك كله ، فإن إدارة الكنطونات نفسها تسير على خطة « اللامركزية الواسعة النطاق » فلا تتدخل في شؤون الـ « كومونات » (النواحي) فكل ناحية من النواحي التي تؤلف الكنطون تتمتع بسلطات واسعة جداً ، في تصريف الأمور ، وفرض الضرائب وتقرير الأنظمة ، وانتخاب وتعيين الموظفين والمستخدمين .

فلا نغالي إذا قلنا :

إن كل كومون ، أي كل ناحية ، في سويسرا بمثابة وحدة حكومية ، تكاد تكون تامة . فإنها لا تراجع إدارة الكنطون ، إلا في الأمور المحدودة التي تتصل بمصالح سائر النواحي بأجمعها .

وكل كنطون ، أي كل مقاطعة ، يشبه حكومة قائمة بنفسها . فإن إدارتها لا تراجع مجلس الاتحاد ، إلا في الأمور التي تتصل بالعلاقات الخارجية وبالدفاع الوطني .

ولا حاجة إلى القول إن هذه الأمور في سويسرا أصبحت محدودة وبسيطة ، بسبب سياسة « الحياد الدائم » التي ألفتها هي كل الألفة واحترمتها الدول المجاورة لها تمام الاحترام .

إن هذا النظام الذي تقرر في سويسرا ، بتأثير العوامل الكثيرة التي ذكرتها آنفاً ، هو الذي ضمن البقاء لهذه الدولة الاتحادية الصغيرة ، وحال دون تفكك أوصالها على الرغم من تعدد عناصرها .

خاتمـــة

أعتقد أن الحقائق التي سردتها آنفاً عن أمريكا وبلجيكا وسـويسرا لا تتـرك مجالاً للشك في أن الذين يستشهدون بأحوال تلك البلاد ، لاستصغار شأن اللغـة في تكوين الأمم والـدول ، وبالتـالي لانكار وحـدة الأمـة العـربيـة . . . ـ يضلون سـواء السبيـل فيخطئون خطأً عظيماً .

فإننا نستطيع أن نؤكد ـ بعد هذه التفاصيل ـ إن اللغة لم تفقد تأثيـرها في تلك البلاد ، وإن ظهرت أحوالها ، في الوهلة الأولى مخالفة لقانـون « جاذبيـة اللغة » ، كـما تظهر بعض الحوادث الطبيعية مخالفة لقانون « جاذبية الأرض » .

ولزيادة التأكيد على هذه الحقيقة ، نستطيـع أن نضيف إلى كل مـا سبق ، أموراً أخرى ، فنقول :

إن من يدرس تاريخ بلجيكا بشيءٍ من التفصيـل ، يرى أن « مشكلة اللغـات » لعبت دوراً هاماً جداً في سياستها الداخليـة ، ولم تخل من التـأثير في أمـورها الخـارجية أيضاً في بعض الأحوال .

ومن يتتبع تاريخ سويسرا القريب ، يرى أن حيادها السياسي الرسمي ، لم يحل دون ظهور إختلاف كبير بين ميول سكان مقاطعاتها الفرنسية ومقاطعاتها الالمانية خـلال الازمات العالمية . . .

ومن يستقص الدول الأمريكية الداخلية ، يلاحظ الاهتمـام البالـغ الذي تبـديه جميعها بقضية « أمركة المهاجرين » .

ولكني لا أرى لـزوماً لإطـالة هـذا البحث بشرح هـذه الأمور ، لأني اعتقـد أن التفـاصيل التي سـردتها عن خصـائص كل واحـدة من الدول المـذكورة وعن العـوامل المؤثرة فيها ، تكفي لتفنيد الحجج التي يحاول استخلاصها معارضو الوحدة العربية من أحوال تلك البلاد .

ابو خلدون ساطع الحصري

- ولـد في صنعاء اليمن عام ١٨٧٩ . وهو من عائلة عربية اصلها من الحجاز وقدمت الى حلب في القرن التاسع الهجري
- عمل في السلك الاداري العثماني في البلقان حيث درس على الطبيعة نشوء القوميات البلقانية قبل الحرب العالمية الاولى
- التحق بالملك فيصل الاول واصبح وزيراً للمعارف في الحكم الفيصلي بدمشق
- فاوض الجنرال غورو قبيل معركة ميسلون
- خرج من سوريا مع الملك فيصل الاول، والتحق به بعد ذلك في العراق حيث تولى شؤون المعارف والثقافة
- جُرد من جنسيته العراقية وأُخرج من العراق عام ١٩٤١، وذلك لتأييده للجانب العراقي في الحرب العراقية ـ البريطانية
- عمل مستشاراً للجنة الثقافية في جامعة الدول العربية
- أسس معهـد الـدراسـات العربية العالية في القاهرة عام ١٩٥٣ واصبـح مديراً له، والـذي سمي فيما بعـد معهـد البحوث والدراسات العربية
- توفي في بغداد عام ١٩٦٨ ودفن في مقبرة الامام الاعظم .

الطبعة الثانية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية « سادات تاور » شارع ليون
ص . ب : ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون : ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤
برقياً : « مرعربي »
تلكس : ٢٣١١٤ مارابي

او ما يعادلها